من وحي القرآن الكريم

كتاب التلميذ

برنامج السنتين الخامسة والسادسة من المرحلة الأولى من التعليم
مرخص في استعماله بالمدارس الابتدائية

جمعة الهرقلي
متفقد جهوي بتونس

علي بن هادية
مدير مدرسة

بلحسن البليش
أستاذ مساعد

نشر
الشركة التونسية للتوزيع

من وحي القرآن الكريم

كتاب التلميذ

برنامج السنتين الخامسة والسادسة من المرحلة الأولى من التعليم
مرخص في استعماله بالمدارس الابتدائية

نشر
الشركة التونسية للتوزيع

السّوَرُ المقرّرة

أ) للسَّنة الخامسة

1) سورة الضُّحى

2) سورة اللّيل

3) سورة الشَّمس

4) سورة البلد

ب) للسَّنة السَّادسة

1) سورة الفجر

2) سورة الغاشية

3) سورة الأعلى

طبع بمصنع الكتاب
202/21/79
جوان 1979

سُورَةُ الضُّحَى

أَسْبَابُ ٱلنُّزُول

ٱنقطعَ الوحيُ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم زمنًا طويلًا، فخافَ وقلِق، وظنَّ أنَّ ربَّه قد تركَه. فأنزلَ اللهُ عليهِ هذهِ السُّورةَ تطمينًا له، وتبشيرًا بٱستئنافِ نُزولِ الوحيِ عليهِ. قالَ تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَىٰ (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (2) مَا وَدَّعَكَ
رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (3) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ
ٱلْأُولَىٰ (4) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ
فَتَرْضَىٰ (5) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (6)
وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (7) وَوَجَدَكَ
عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (8) فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ
(9) وَأَمَّا ٱلسَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (10) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11)

لِنتفهّمْ

وَالضُّحَى: أَي قسمًا بِالضُّحى. والضُّحَى هو صدرُ النَّهارِ وأَوَّلُه. حينَ ترتفِعُ الشَّمسُ، وتُلقي أَشعَّتَها علَى الكون.

واللَّيلِ إذا سجَى: أَيْ قسمًا أيضًا بالليلِ إذا سجَى أيْ سكَن وانْتشَر ظلامُه علَى الكون. والحِكمةُ هُنا في القَسَم بالضُّحَى والليلِ، أنَّهما رمزُ انتظامِ سَيرِ الكونِ في تَعاقُبِهما الدَّائِم، وتَداوُلِهما المستمِرّ.

مَا ودَّعكَ ربُّكَ وما قَلَى: أيْ إنَّ ربَّكَ يا محمدُ، لمْ يتْرُكْكَ ولم يَهجرْكَ، ولم يكرهْكَ، حَسبَما ظننْتَ. بلْ هوَ علَى ما تَعلَم، باقٍ على حُبِّه لكَ، وتفضِيلِه إيَّاكَ على الخَلْقِ أجْمعينَ. وهذَا هو المقصودُ من القَسَمِ في هذِهِ السُّورةِ.

وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى: الآخِرةُ في المعَنَى المُتعارَفِ هي يومُ القيامةِ، والأُولَى هيَ الحياةُ الدنْيا. والمقْصودُ بهِما هنا هو أنَّ ما ينْتظِرُكَ يا محمَّدُ. منَ الأحْوالِ في غَدِكَ. خيرٌ لَكَ ممَّا سبَقَ، أيْ أنَّكَ ستزْدادُ رفْعةً وشَأْنًا، وسيزْدادُ دينُكَ ذُيوعًا وانْتشارًا، كلَّمَا تقدَّمَتْ بكَ الأيَّامُ.

وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى: وبالفعلِ، فإنَّ اللهَ سيُتابعُ نُزولَ وَحْيِهِ عليكَ بمَا يَجْعلُكَ راضِيًا عن نفسِك، مُطْمَئِنًّا إلَى تحْقيقِ أهدافِ رِسالتِكَ الَّتي داخَلكَ القَلَقُ في شأْنِها عنْدَما انقطعَ عنْكَ الوَحْيُ، مدَّةً منَ الزَّمنِ.

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى: أيْ وَمِنَ الأدِلَّةِ على مَا تقدَّمَ منَ العِنايةِ الإلهيَّةِ بكَ أنَّه سبْحانَهُ وتَعالَى آواكَ أيْ رَعاكَ، وحَماكَ وحَفِظكَ من شَرِّ اليُتْمِ، بِأنْ عطَّفَ علَيْكَ جدَّكَ عبدَ المُطَّلِبِ، فَكفَلَكَ وقامَ بشؤونِ ترْبيتِكَ.

وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى: أيْ وَمِنَ الأدلَّةِ علَى العِنايَةِ الإلَهيَّةِ بِكَ أيْضا

أنّه أرشدك، وهداك إلى الإسلامِ، عِندما كنتَ ضالاً، أيْ حائرًا متردِّدا، لاَ تعرِفُ أيَّ طريقٍ تسْلُكُ، بينَ قومٍ اختلفتْ أديانُهم.

وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى: وَالدليلُ الثالثُ أنّهُ أغناك. أيْ يسَّرَ لكَ أسْبابَ الرِّزْقِ، عنْ طَريقِ ما رَبِحْتَه مِنْ تِجارَتِكَ لِخَديجَةَ، بعدَ أنْ كنتَ عائِلاً أيْ فقيرَ الحالِ.

فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ، وَأَمَّا ٱلسَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ، وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ: أيْ وَلْيَكُنْ منْ شُكرِك، وحَمدِكِ للهِ، ألاَّ تقهرَ اليتيمَ فتُذِلَّه، وألاَّ تَنهرَ السائلَ فتَطرِدَهُ، وتُرجِعَه خائِبًا، وأنْ تُوسِّعَ علَى الفقراءِ، والمَساكِينِ بِالبذلِ والعَطاءِ، مِمَّا أنعمَ اللهُ بِهِ عليْكَ منَ الخيْراتِ.

ومُجْمَلُ المَعْنَىٰ

أنَّ اللهَ سبحانَه وتعالَى، أقْسَمَ بالضُّحَى، واللَّيلِ، أنَّهُ غيرُ تاركٍ نبيَّهُ، ولاَ مُبْغِضٍ إيَّاهُ، بِدَليلِ أنّـهُ آواهُ عنـدَمـا كـانَ يتيمًـا، وهدَاه عندَما كانَ ضَالاً، وأغْناهُ عندَما كانَ فقيرًا. ثمَّ زادَ فَطَمْأَنَهُ، وبشَّرَهُ بِاسْتِئْنافِ وحيِه إليهِ، مُوصِيًا إيَّاهُ بِألا يقْهَرَ اليتيمَ، وألاَّ يَنهرَ السائِلَ، إذْ كِلاهُما في حاجَةٍ إلَى المُساعدَةِ، وأنْ يذكُرَ نِعمَتَهُ عليهِ بِالشكرِ وَالحمدِ.

في حقل التربية

صور من الحياة

لنتأمل

منَ النّاسِ مَنْ يُسيءُ مُعاملةَ المُسترشِدِ، أَوْ طالبِ الحاجةِ، فيَغضَبُ في وَجهِهِ، ويُسمِعُه ما يَكْرَه منَ القَوْل، وقدْ يذهَبُ به الحالُ إلى نَهرِه، وطَرْدِه منْ أَمامِه، وحتّى إلى غشِّهِ وتعمُّدِ تَضْليلِه. وهيَ لعَمْري أَسْوَأُ الحالاتِ.

وَالمُستَرْشِدُونَ وطُلاَّبُ الحاجَةِ في الحيَاةِ كَثيرٌ :

– ضَريرٌ قد أضلَّ طريقَهُ فوقَفَ يَستَهْدِي المارّةَ.

– غَريبٌ تائِهٌ قد اختلَطتْ علَيهِ السُّبُلُ، فلَمْ يعرِفْ أيّها يَسلُكُ. فوَقفَ يَسْأَلُ.

– أُمِّيٌّ قدْ أَعْوَزَتْه القِراءَةُ فلَمْ يهْتَدِ إلى قَضاءِ شَأْنِه. فتقدَّمَ يَستَرْشِد.

– مُسْتَفهِم حائِرٌ قد أَشْكلَ عليْهِ أَمْرٌ في دِينِه، أَوْ في شُؤُونِ حَياتِه، فاسْتَعْصَى عليهِ الفَهْمُ، فجَاءَ يَسْتَفْسِر....

إِلى غيْرِ ذَلك منَ الحَالاتِ الّتي قد لاَ نَنتَبِه إلَيْها، إلاَّ متَى اسْتَوْقفَتْك، أَوْ صادَفَ أَنْ وقَعتْ علَيْها عَيْنُكَ.

لنُعلِّق

هِيَ أَلوانٌ منَ المآسِي البشريَّةِ ولا شَكَّ !

وإنّكَ لَتستَغْرِبُ أَن يكونَ منَ الناسِ مَنْ لاَ يَرْعَى لها اعْتِبارًا، ويَسْتَهينُ بِأَصْحابِها لِغلْظةٍ في القَلْبِ، وشَراسَةٍ في الأَخْلاقِ، وقَذارةٍ في اللِّسانِ، وسُوءٍ في الطِّباعِ..!

ولكنَّ اسْتِغْرابَك سرعانَ ما يزُولُ إذا مَا عَلِمْتَ أَنَّ مِثْلَ هؤُلاءِ لَيْسُوا إلاَّ شِرْذِمَةً قَليلةً، مُحتقَرةً، لا يخلُو منهم مُجتمعٌ، وأَنَّ أَهلَ المرُوءَةِ – مَنْ إذا سُئِلوا أَجابُوا، وإذا اسْتُرْشِدُوا أَرْشَدوا، وإذا اسْتُعِينُوا أَعانُوا – لَأَكثَرُ منَ الكثيرِ !

وَإنَّهُ لِمَنْ كَرَمِ النَّفْسِ، وطِيبَةِ القَلْبِ، أَنْ نَتنكَّبَ عنْ سُبُلِ الأَوَّلينَ، ونَسلُكَ مِنْهاجَ الأَخيرِينَ، مُعْتَبِرينَ بِقوْلِ اللهِ عزَّ وجَلَّ لِنَبِيِّهِ الأَفْضَلِ الكرِيمِ : وَأَمَّا السائلَ فلاَ تَنْهَرْ!

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (1) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (2)
وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (3) إِنَّ سَعْيَكُمْ
لَشَتَّىٰ (4) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (5) وَصَدَّقَ
بِالْحُسْنَىٰ (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (7) وَأَمَّا
مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ
(9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (10) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ
مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ (11) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ (12) وَإِنَّ
لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ (13) فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ
(14) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (15) الَّذِي كَذَّبَ
وَتَوَلَّىٰ (16) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (17) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ
يَتَزَكَّىٰ (18) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ
(19) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (20) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (21)

سُورَةُ اللَّيْلِ

أَسْبَابُ النُّزُولِ

حبَس أَحَدُ أَغنياءِ الكفَّارِ من قُريشٍ بِلالاً، مؤذِّنَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مِنْ أَجْلِ دُخولِهِ في الإِسلامِ، وجعَلَ يُعذِّبُهُ بِشتَّى أَنْواعِ التَّعذيبِ، ولمَّا علِمَ النَّبيءُ بِذلكَ، أَخْبرَ أبَا بَكْرٍ، فاشْترَاهُ بِمالِهِ الخَاصِّ، وأَعْتقَهُ لِوجْهِ اللهِ تعالَى. فأَنزَلَ اللهُ ذَلكَ في هَذِهِ السُّورةِ.

◆ قال تعالى:

لنتفهم

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى: أَيْ عنْدَما ينْشرُ ظلامَه علَى الكوْنِ فيُغطِّيهِ.

وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى: أَيْ ظهَر، وبانَ ضِياؤُه.

أَقْسَمَ اللهُ بِالليلِ والنَّهارِ لِمَا بَيَّنَاهُ فِي السُّورةِ السَّابقَةِ مِنْ حِكمَةٍ فِيهِما، ثُمَّ زادَ فأَقسَمَ بِذاتِه جلَّ وعلاَ، حيْثُ قالَ « وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى » وَفِي تَعْدادِ المُقسَمِ بهِ تَأْكيدٌ لِلقَسَمِ.

إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى: جوابُ القسَمِ. وَالمَقصودُ بِهِ هُنا أَيْ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ أَعمالَكُمْ فِي هذِهِ الدُّنيا، لَمُختلفةٌ مُتبايِنَةٌ، فِيهَا الحَسَنُ والقبيحُ، وفِيها النَّافِعُ والضَّارُّ، وفيهـا مَا يَستحِقُّ الثوابَ، وفِيهـا مَا يَستوْجِبُ العِقابَ. وعلَى هَذا:

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى، وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى. وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى:

أَيْ فَمَنْ أَعْطَى مَالَهُ، وَبَذَلَهُ فِي سَبيلِ الخيْرِ، والصَّالحِ العامِّ، ونفَعَ وأفادَ، وَخافَ اللهَ وآمنَ بِه. وصدَّق بِوحْدانِيَّتِهِ، وَاعْتقَدَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلاَّ هو لا شَريكَ لهُ فذَلِك سَنُيَسِّرُه لِلْيُسْرَى، ونَهْدِي خُطاهُ إِلى طَريقِ السَّعادَةِ ومَنْ شَحَّ بمالِهِ وبخِلَ بِهِ واسْتغْنَى عنِ النَّاسِ، واسْتعْلَى، وتكبَّرَ، وكذَّبَ بِوحْدانيَّةِ اللَّهِ عزَّ وجَلَّ، وأَشْرَكَ بِهِ غيْرَه. فذَلِك سَيتزَلَقُ في

طريقِ الشَّقاوَةِ، وسَتَعَسَّرُ في وجْهِهِ مَسالِكُ الحياةِ. ويكونُ مآلَه الخُسرانَ. وهَذا بالنِّسبَةِ للحياةِ الدُّنيـا.

وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى: ثمَّ ولا يُفيدُه مالُه شيئًا إِذا تردَّى أَيْ هَلَكَ ومَاتَ، وَانتقلَ إِلى الدَّارِ الآخِرةِ.

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى: الهُدَى مصدرُ هدَى يهْدِي. وهدَى غيرَهُ بِمعْنَى أَرشدَهُ، ووجَّهَهُ إِلى طريقِ الخَيْرِ.

الآخِرَةُ وَالْأُولَى هُمَا: الحياةُ الدُّنيا، والحياة الآخِرَة. والمعنَى أَيْ ليسَ لِلإِنسانِ منْ عُذْرٍ يُقدِّمُه يومَ أَنْ يُدرِكَه الموْتُ، إِذْ نحْنُ قَدْ وفَّرْنا لَهُ أَسبابَ الهِدايَةِ بِمَا أَوْدعْناهُ فِيهِ مِنْ عَقْلٍ يُمَيِّزُ بِهِ الخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ، وبِما أَرْسلْناهُ إِليهِ مِنَ الأَنْبِياءِ وَالمُرْسَلِينَ. وبِمَا أَنزَلْناهُ عليْهِمْ مِنَ الكُتُبِ السَّماوِيَّةِ. وإِذَنْ فمِنَ الطبيعيِّ أَنْ يكُونَ أَمرُه إِليْنا، نحنُ رَبُّ السَماواتِ والأَرْضِ، ومَالِكُ الدَّارَيْنِ الأُولَى والآخِرَةِ، نَجْزِيهِ فِيهِما بِما صَنَعَتْ يَداهُ.

فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى: الخِطابُ هُنا موجَّهٌ لِعمومِ النّاسِ. وَالمعْنَى أَوَ لَمْ أَكُنْ قدْ نَبَّهتُكم وحذَّرْتُكم مِنْ نارٍ تَتَلَظَّي، وتَلْتَهِب الْتِهَابا؟ وَأَشْعَرْتُكُمْ بِأَنَّهَ لَا يَصْلَاهَا. ولا يُعذَّبُ بِحرِّها إِلَّا كُلُّ شَقِيٍّ، مُكذِّبٍ رسولَ اللهِ فِيمَا جاءَ بِهِ مِنَ التَّعاليمِ السَّماوِيَّةِ، مُتَوَلٍّ مُعْرِضٍ عَنِ الحَقِّ، وعَنْ طَاعَةِ ربِّهِ.

وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى، وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى.

النِّعْمَـةُ: هِيَ المَعروف

تُجْـزَى: أَيْ تُكَافَأُ

وَالمعنَى أَنَّ هذِهِ النَّارَ التِي تقدَّم ذِكْرُها، سيُجنَّبُهـا ويُبْعد عنها التَّقِيُّ الذي يُنفِقُ منْ مالِه، ويَتَزَكَّى. ويتصدَّقُ. لَا لِمُقابلَةِ مَعْروفٍ، أَوْ نِعمةٍ لِغيْرِهِ عليْهِ. وإِنَّما طَلَبًا لِمرْضاةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ. وهو نفسُ مَا

قَامَ بِهِ أَبو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، عندما آشْتَرَى بِلالاً بِمالِه الخَاصِّ، وخلَّصه مِنْ أَيْدِي المُشْرِكين، لاَ لِيَدٍ أَوْ مَزِيَّةٍ كَانَتْ لِبِلالٍ عليه، بَلْ لِوجْهِ اللَّهِ تعالَى. وبِذلِكَ فسَيُجازَى عَنْ صَنِيعِهِ هَذَا. ولَسَوْفَ يرْضَى اللَّهُ عنهُ.

ومُجْمَل المَعْنى

أَنَّ اللهَ سبحانَه وتعالى، أَقْسَمَ بِالليلِ والنَّهارِ، لِما سَبَقَ أَنْ بَيَّنَّاهُ مِنْ حِكْمَةٍ فِيهِما، أَنَّ أَعمالَ النَّاسِ فِي هذِه الدُّنيا مُختلِفَةٌ مُتبايِنَةٌ. فِيها الحسنُ والقبيحُ، وفِيها النَّافِعُ والضَّارُّ، وفِيها مَا يستحقُّ الثَّوابَ. وفِيهَا ما يَسْتَوْجِبُ العِقابَ. وَمِنْ هُنا جَعلَ الجنَّةَ مصيرَ مَنْ يَختارُ منهُمْ طَرِيقَ الخَيْرِ، وجَهَنَّمَ جزَاءَ مَنْ يَتَزَلقُ منْهُمْ فِي طَرِيقِ الشَّرِّ.

في حقل التربية
صور من الحياة

لِنتأمَّل

النَّاسُ في الحياةِ على ٱختِلافٍ :

- زعيمٌ يُفْنِي العُمْرَ مُحاوِلاً تخْلِيصَ شعْبِهِ منْ رِبْقَةِ الاسْتِعْمارِ، أَوْ إِخْراجِه مِنَ التَّخلُّفِ، والصُّعودَ بِهِ إِلى مَراقِي العِزَّةِ والكرامَةِ.
- ومارِقٌ يَنْفُثُ السُّمومَ، ويَبذُرُ بُذورَ التَّفْرِقَةِ والشِّقاقِ، ويُقيمُها عَراقِيلَ في وُجوهِ المُصْلِحينَ، ويَقِفُ حجَرَ عثْرَةٍ في سَبيلِ التَّقدُّمِ والازْدِهارِ.
- أَوْ عالِمٌ مُوَفَّقٌ قَدِ ٱعتكَفَ في مَخْبَرِه، وٱنْصَرَفَ عنِ الدُّنيا، وأَقبلَ على الجَراثيمِ الفتَّاكةِ، يُعالِجُها أَملاً في تَسخيرِها لِخَيْرِ الإِنسانيَّةِ بِما يَسْتخْرِجُه مِنْها مِنْ جَديدٍ نافِعٍ يُخفِّفُ بِهِ الآلامَ، ويَدْفَعُ عنها الأَوْبِئَةَ والأَمْراضَ.
- وآخَرُ مَخْذولٌ قَدْ حالَفَه الشَّيْطانُ، فسَخَّرَ مَواهِبَهُ العِلْميَّةَ لِٱخْتِراعِ المحْرِقاتِ، والمُدمِّراتِ، والمُبيداتِ.وغيْرُ هَؤُلاءِ كثيرٌ....

لِنُعلِّقْ

هِيَ أَعمالُ الناسِ شتَّى مُخْتلِفَةٌ كما رَأَيْتَ. ولاَ شكَّ أَنكَ قدْ أَنكَرْتَ أَنْ يَكونَ فيها ما يُؤْلِمُ ويضرُّ. ولكنَّكَ ترْتاحُ، وتَطيبُ نفْسًا، إِذا ما عَلِمتَ أَنَّ كلَّ ما نَتمتَّعُ بِهِ اليومَ منْ مَظاهِرِ الحَضارةِ والرُّقِيِّ في حَياتِكَ، إِنَّما كانَ منْ عَمِلِ الإِنْسانِ لِخَيْرِ أَخيهِ الإِنْسانِ، وأَنَّ الشَّرَّ قَلَّ أَنْ يُعمِّرَ، وَأَنَّ لَهُ صَوْلَةً ثمَّ يزولُ ولكَ عِبْرةٌ في ذلِكَ بِقوْلِهِ تَعالَى : «فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (2)
وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4)
وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (5) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا
(6) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا
وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ
خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا
(11) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (12) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ
اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (13) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا
فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (14) فَلَا
يَخَافُ عُقْبَاهَا (15)

سُورَةُ الشَّمْس

أَسْبَابُ ٱلنُّزُول

بالَغَ مُشرِكو قُرَيْشٍ في إِذايَةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ، واشتَدُّوا في مُقاومَةِ رِسالتِه. فأَنزَلَ اللهُ هذهِ السُّورةَ لِتحذيرِهم منْ عاقِبَةِ المُضِيِّ في ذَلِكَ، وضَرَبَ لهم لِلمَوْعِظةِ مَثلاً بِقَوْمِ ثمودَ. وهِيَ قَبيلةٌ منْ قَبائِلِ العَرَبِ القَديمَةِ، وَ مَا حَلَّ بِهِمْ مِنْ هلاكٍ أَتَى على جَميعِهِم، إِذْ هُمْ تَصدَّوْا لِمُقاوَمةِ نَبيِّهِم صالح عليهِ السَّلامُ، وتحدَّوْا أَوامِرَه ونَواهِيهِ، ولَمْ يَكتَرِثوا بِها.

قال تعالى:

لِنَفْهَمْ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا، وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا، وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا، وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا، وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا: هِيَ جُملةٌ مِنَ الأَدلَّةِ السَّاطِعَةِ علَى عظَمَةِ اللهِ جلَّ شأْنُهُ فِي خَلْقِه لِهَذا الكوْنِ. وقَدْ أَقْسَم بِها جَميعًا فِي هذهِ السُّورَةِ لِحَمْلِ خُصومِ الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عَليْهِ وسَلَّمَ مِنْ مُشرِكِي قُرَيْشٍ، علَى الكَفِّ عَنِ العِنادِ، وعلَى التَّسليمِ والتَّصديقِ بِرِسالَتِه. والمُقْسَمُ عليهِ في هذهِ السُّورَةِ هوَ قوْلُهُ تَعالَى: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا.

وَالمَعْنَى هُنَا - والخِطابُ موجَّهٌ كما أَسْلَفْنا - إِلَى مُشْرِكِي قريشٍ، أَيْ أَيُّها المشركون: قَسَمًا بِالشمسِ، وَبِاكتمالِ إِشْراقِها، وتَمامِ نُورِها وبَهائِها، وقَسَمًا بِالقمَرِ إِذَا تَلاَها وتَبِعَها، فَأَضاءَ بِضيائِه ظُلمةَ اللّيلِ، وَأَزالَ وَحْشتَه، وقسَمًا بِالنَّهارِ إِذا جَلاَّها، وأَبْرَزَ سَناها، وقَسَمًا بِالليلِ عِندَما يَغشَاها، فيَحجِب نُورَها، ويُشيعُ الهُدوءَ

والسَّكينةَ في الكونِ، وَقسَمًا بالسَّماءِ، وبعظَمَةِ بنائِها، وقَسَمًا بالأرْض، وَبحكْمَةِ طَحْوِها وبَسْطِها، لِتكونَ لِلإنْسانِ مَيْدانَ عَمَلٍ وَارْتِزَاقٍ، وقسَمًا بالنَّفْسِ البشريَّةِ، وبماأوْدعْناه فِيها من غَرائزَ، وَحَوَاسَّ، تميِّزُ بها فُجورَها وتَقْواها، أيْ شرَّها مِنْ خيرِها . قَسَمًا بِكلِّ ذلِكَ أيُّها المشرِكونَ أنَّ الفَلاحَ كُلَّ الفَلاحِ لِمَنْ زَكَّى. نفسَه، وطهَّرَها منَ الشِّرْك، والذنوبِ، وَأنَّ الخَيْبَةَ كُلَّ الخَيبةِ لِمَنْ دسَّاها، وغَمسَها في الشِّرْكِ والمَعاصِي ؛ وحَمَّلَها العِنادَ، والمُكابرةَ، وتَكذيبَ دَعْوةِ الرسولِ صلىَّ الله عليه وسلَّمَ.

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا، إِذِ ٱنبَعَثَ أَشْقَاهَا . فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ. نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَاهَا. فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا، فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا.

ٱلطَّغْوَى : مصدرُ طغَا يطْغو. أيْ تجاوَزَ الحدَّ في البَغْيِ والظُّلمِ

رَسُولُ ٱللَّهِ : هو سيِّدُنا صالحٌ عليهِ السلامُ، نبيُّ ثمودَ.

نَاقَةَ ٱللَّهِ : هيَ ناقةٌ جعلَها اللهُ معجزةَ النبيءِ صالحٍ. كما جعَلَ العصَا مُعجزَةً لِمُوسى، وإحياءَ الموْتَى مُعجزةً لِعيسَى، والقرآنَ مُعجزَةً لِمحمدٍ، صَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم أجمَعينَ.

سُقْيَاهَا : أي شِرْبَها ونَصيبَها منَ الماءِ.

عَقَرُوهَا : أيْ نَحروها وذَبحُوها.

فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ : أهلكَهُم، وأطْبَقَ عليهمُ العَذابَ.

فَسَوَّاهَا : أيْ لم يَسْتثنِ منهمْ أحدًا، لا صَغيرًا، ولاكَبيرًا، ولا عَظيمًا، ولا حَقيرًا.

وَالمعنَى ، أيُّها المشركُونَ : فلْتكُنْ لكُمْ فِي وَاقِعةِ ثَمودَ، وما حَلَّ بها منْ هَلاكٍ، ودَمارٍ، جَزاءَ تكذِيبِها لِنبيِّها صالحٍ، وتَحدِيها لِأوَامِرِه ونَواهِيهِ، مَوْعِظَةٌ، وعِبرةٌ، تَعْتبرُونَ بِهِما، إذْ قالَ

لَهم نَبيُّهُمْ صالحٌ: «هذِهِ ناقةٌ، لَها شِرْبٌ ولَكُمْ شِربُ يَوْمٍ معلومٍ. ولا تَمسُّوها بِسُوءٍ فيأخُذَكم عذابُ يومٍ عظيمٍ.» فَلَمْ يُبالُوا بِالوَعيدِ. وَارْتَمى عَلَيْها أَحَدُهم، وهوَ أشْقاهم، فذَبَحَها بِمَرْأى ومَسمعٍ منهُمْ جَميعًا، دونَ أنْ يُحرِّكُوا ساكِنًا. وبِذا دمْدَم اللهُ عليهم، وأهلكَهُم جميعًا، دونَ أن يُفْلِتَ منهمْ أحَدًا. كَذا يَكونُ جَزاءُ المُكذِّبينَ المُعانِدينَ.

فَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا: بمعنى فَلْتَعْلَموا إذَنْ أَيُّهَا المُشْرِكونَ، أَنَّ اللهَ الذي أهْلَكَ ثَمودَ، لا يَخافُ عاقِبَةَ مَا فعلَ بهمْ. إذْ أنفسَهم ظَلمُوا. فَلاَ غَرابةَ أنْ يُنزِلَ بكُمْ ما أَنزلَ بِهِمْ إنْ تَمادَيْتُمْ فيمَا أَنْتُمْ فِيهِ من ضَلالٍ، وتَحَدٍّ للنبيءِ محمدٍ، ولِرِسالتِهِ، ولَمْ تكُفُّوا عنْ إذايَتِهِ.

ومُجْمَلُ المَعْنى

أنَّ اللهَ سُبحانَهُ وتعالَى، أقسمَ بِجُملةٍ منْ دَلائِلِ عَظمتِهِ في خَلقِهِ وهيَ الشمسُ، والقمرُ، والنهارُ، والليلُ، والسماءُ، والأرضُ، والنفسُ البشريةُ، أنَّ المفلحَ في هاتِهِ الدنيا، هوَ مَنْ طَهَّرَ نفسَه. وصانَها عنِ الشِّرْكِ ونزَّهَها عنْ رَذائِلِ الأعمالِ، وأنَّ الخاسِرَ هو مَنْ أَوقَعَها في الشِّرْك ودنَّسَها بارتكابِ المَعاصِي، ونَزلَ بِها إلى هُوَّةِ الفَسادِ، ولم يَتَّعِظْ بِما حَلَّ بغيرِه منْ سُوءِ المَصيرِ.

في حقل التربية
(صور من الحياة)

لِنتأمَّل

قدْ تُلاحِظ على أخٍ لكَ أوْ صديقٍ، مَيْلاً إلى مُخالطةِ الاشرارِ. فتنَصحه بالابتعادِ عنهم، وبتركِ صُحبتهم. فيستغربُ أمرَك، ويظنُّ الغلَطَ، فتُلِحُّ، وتُحاول إقناعَه بصوابِ رأيك، ضارِبًا له أمثِلةً عديدةً في سُوءِ مُخالطةِ الاشرارِ، فيُصِرُّ على العِنادِ، ويأبَى الاتِّعاظَ. ثمَّ قدْ يتَّفِقُ ألاَّ يَمضيَ طويلُ وقْتٍ حتَّى يقَعَ في المكروهِ فيندَمَ. ولكنْ هيْهاتَ أنْ يَنفعَ الندمُ.

لِنُعلِّق

وَفي الواقِعِ، قد ينْفَعُ الندمُ، ولكنْ علَى شرْطِ أنْ يتَّعظَ المرْءُ بِما حصَلَ له مِنْ مَكْروهٍ، فلا يَنْزلِقَ فيهِ مرَّةً ثانيةً. والعاقلُ من يحكِّمُ عقْلَه في أعمالِه، فَيبتعدُ عن ضارِّها، ويُقبِلُ على نافِعِها، قبلَ أن تحُلَّ بهِ المصائبُ، لاسيمَا إذا وجَد مَن أسدَى إليهِ النصيحةَ، وبصَّرهُ بعواقِبِ الأمورِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ (1) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ
(2) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي
كَبَدٍ (4) أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5) يَقُولُ
أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا (6) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ
(7) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (9)
وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11)
وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12) فَكُّ رَقَبَةٍ (13)
أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (14) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ
(15) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (16) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ
آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (17)
أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (18) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا
هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (19) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ (20)

سورة البلد

أسباب النزول

نزلت هذه السورة في الحث على العمل. وفي التحريض على فعل الخير. والتواصي بالصبر، والمرحمة، والتضامن عند النكبات، والمصائب.

﴿ قال تعالى:

لنتفهم

لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا ٱلْبَلَدِ، وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا ٱلْبَلَدِ، وَوَالِدٍ، وَمَا وَلَدَ، لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ.

ٱلْبَلَدُ : مكّة المكرّمة.

وَأَنْتَ حِلٌّ أَيّ نَازِلٌ مُقِيمٌ.« والمقصودُ بِالخطابِ هُنا: محمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ. »

ٱلْكَبَدُ : التَّعبُ والمشقَّةُ.

وَالْمَعْنَى : قَسَمًا يا محمدُ بِمكَّةَ، هَذا البلدِ الامينِ الذي ٱستحقَّ أَنْ يُحلَفَ بهِ لِمَا نالَهُ مِنْ شرَفٍ بِسبَبِ وُجودِكَ، وَإِقامَتِكَ بهِ، وقَسَمًا بكلِّ وَالِدٍ، وما وَلَدَ منْ أَبٍ، وأُمٍّ، وذُرِّيَّةٍ، لِمَا لِلآباءِ والأُمَّهَاتِ من فَضْلٍ علَى الابناءِ معلومٍ، لا يُنكَرُ، ولِمَا لِهؤُلاءِ مِنْ مَزيَّةٍ على تعميرِ الكَوْنِ بِتعاقُبِ الأَجْيالِ، جِيلاً بعدَ جِيلٍ. قَسَمًا بِكُلِّ ذلِكَ يا محمدُ أَنَّا خلقْنا الإِنسانَ في كَبَدٍ، أَيْ لِيكدَّ ويجدَّ في هذهِ الحياةِ الدنيا، إِذْ فِي كدِّهِ وجِدِّهِ ضَمانٌ لِرزْقِهِ، وتَوفيرٌ لِسعادتِه، ولِسعادةِ غيرِه من بَنِي الإِنسانِ، على وَجْهِ هذهِ البَسيطةِ.

أَيَحْسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ: أَيْ وإِذا كانتْ هذِهِ يا محمدُ، حِكمتُنا في خَلقِنا الإِنسانَ. وفِيمَا طَبَعناهُ عليْهِ من صِفاتِ الجِدِّ والكَدِّ لِيقْوَى

على الحَياةِ، ويتَغلَّبَ على مَصاعِبِها الكثيرةِ. فهَلْ مِنَ الجائِزِ أن يَحسِبَ هذا الانسانُ، ويظُنَّ أنهُ صارَ مِنَ العِزَّةِ والعَظمةِ، بِحيثُ لا يقدِرُ عليهِ أحدٌ؟ فَإنْ يَكُنْ ذلِكَ منهُ فهُوَ مِنْ مَحْضِ العُجْبِ، والعُقوقِ. ولا شكَّ!

يَقولُ أَهْلَكتُ مالاً لُبَدًا: أيْ أوهلْ يَجوزُ له أيْضًا أنْ يتبَجَّحَ ويقولَ مُتباهيًا: أهلكتُ مالاً لُبَدًا! كأنَّما في تَبذيرِ المالِ اللُّبَدِ الكثيرِ، وفي صَرفِه في غيرِ وُجوهِهِ فخرٌ وعظَمةٌ! فَإنْ يكُنْ ذلكَ منه أيضًا فَهُوَ منْ مَحْضِ الجَهْلِ في تَدبيرِ شُؤونِهِ.

أَيَحْسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ: ثمَّ وهلْ يَحسِبُ هذا الإنسانُ بِفعلِه ذاكَ، أنَّ أعمالَه تَخفى عنَّا، لا نَراها، ولانَتبيَّنُ القَصْدَ مِنها. فَإنْ يكُنْ ذلكَ منه أيضًا، فإنَّما نفسَه يُغالِطُ، إذْ نحنُ نعْلَم أنَّ ما أنفقَهُ منْ مالٍ، إنَّما أنفقَهُ في سَبيلِ الرِّياءِ، والتَّظاهُرِ، لا في سَبيلِ الخَيْرِ، والصالحِ العامِّ. هَذا مِنْ جِهَةٍ، ومنْ جِهَةٍ أُخْرى:

أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ، وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ، وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ.

هَدَيْناهُ: وجَّهْناهُ وأرْشَدْناه «والضميرُ عائِدٌ هنا على الإنسانِ»

النَّجْدَيْنِ: مُثنَّى نَجد. والنَّجْدُ لغةً هوَ الطريقُ المُرْتفِعُ الصَّعْبُ. وَالمَقْصودُ بِالنَّجْدَيْنِ هُنَا طريقَا الخيرِ والشَّرِّ، وكِلاهُما صَعْبٌ.

وَالمَعْنَى: أوَ هَلْ فكَّرَ هذا الانسانُ أنَّ ما يعتزُّ، ويُفاخِرُ بهِ من قوَّةٍ و كَثْرَةِ مالٍ إنَّما هوَ مِنْ فَضْلِنا عليْهِ، نحنُ الذينَ جَعلْنا لهُ عَيْنَيْنِ لِيبْصِرَ بهما، وَلِسانًا، وشَفَتيْنِ، لِيتَكلَّمَ بِهَا، وكلّها نِعَمٌ ميَّزْناهُ بِها على سَائِرِ الخَلْقِ أجْمعينَ. ثمَّ ولَمْ نَكْتَفِ بذلكَ فهديْناهُ النَّجْدَيْنِ، وأرْشدناهُ إلى ما فِيهِ نفعُه و ضَرُّه، وخيرُه، وشرُّه.

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ، فَكُّ رَقَبَةٍ، أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ، يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ، أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ.

اقْتَحَمَ: حَمَّلَ نفسه أَمْرًا صعْبًا، وزجَّ بِهَا فِيه. « ومنَ الأمورِ الصّعبة التي تشقُّ على النَّفسِ فعْلُ الخيرِ».

الْعَقَبَةُ: في اللغةِ هيَ الطريقُ الوَعْرَةُ في الجبَل. والمقصودُ بها هُنَا مُجاهدةُ النفسِ للتَّغلُّبِ علَى شَهوَاتِها، وشيْطانِها.

فَكُّ رَقَبَة: الرقَبَةُ هيَ العبْدُ المَمْلوكُ. وفكُّ الرقَبَةِ هو عِتْقُها وتحْرِيرُها من العُبُودِيَّةِ. وهذهِ العمليةُ منَ المَحاسِنِ التي يُرَغِّبُ فيها الدينُ الإسلاميُّ.

مَسْغَبَة: المسغبةُ هيَ المَجاعَة.

مَتْرَبَة: المَترَبَةُ هيَ الفقْرُ والفاقَةُ.

والمَعْنَى: فَهلاَّ كانَ أوْلَى بِهذا الإنسانِ المُغْترّ بِقوَّتِهِ، وجَاهِهِ، ومَالِه أنْ يقْهَرَ نفْسَهُ. ويتغلَّبَ على شهَوَاتِها، ويحمِلَهَا على فِعلِ الخيرِ، وَارْتِكابِ المشاقِّ في سَبيلِه. فَيُسارِعَ إلى صَرْفِ مالِه. في عِتْقِ الرِّقابِ، وتحريرِها من العُبودِيَّةِ، وإطعامِ اليتامَى مِن ذَوِي قُرْبَاه، والمساكينِ، من ذَوِي الحَاجةِ والفقرِ، عِوَضَ أنْ يُلْهِيَها بالتَّفاخُرِ الباطِلِ، والرِّياءِ الكاذِبِ

ثُمَّ كَانَ مِنَ الذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُوصَدَةٌ

الْمَيْمَنَةُ: طريقُ الخيْر

الْمَشْأَمَةُ: طريقُ الشَّرِّ.

مُوصَدَةٌ: اسمُ مفعولٍ من أوْصَدَ البابَ أيْ أغْلقَهُ. وَنَارٌ مُوصَدَةٌ أي مُحيطةٌ بالكفَّارِ، مُغْلقَةٌ، مُطْبِقَةٌ عليهِم.

وَالمَعْنَى: لَوْ قامَ هذا الإنسانُ بما رَغبْناهُ فيهِ من المبَرَّاتِ التي تقدَّمَ ذِكْرُها من عِتْقِ الرِّقابِ، وإطعامِ اليَتامَى وَالمساكِين. وكانَ

مِنَ الذينَ آمنُوا باللهِ، وصدَّقُوا بوَحْدانِيَّتِهِ، وتَواصَوْا بِالصَّبْرِ عِلى المَكارِهِ والشدائِدِ، وتَواصَوْا بِرَحْمَةِ الفُقَراءِ وَالمساكينِ. وبِالعطْفِ والحَنانِ عليهِمْ. وبِعبارَةٍ أَوْضَحَ، لَوْ فعَلَ ذلِكَ، وَكانَ مِنْ أَهلِ الإيمانِ وَالتصديقِ، لكانَ منْ أَصْحابِ الخَيْرِ والسَّعادَةِ، لا مِن أولئك «الذين كَفَرُوا بآيَاتِنَا» وجَحَدُوا نِعْمَتَنَا عليهِمْ. فَهؤُلاءِ همْ أَصْحابُ الشَّرِّ وَالمَشْأَمَةِ. وَلَسوفَ يكونُ مصيرُهُمْ جهنَّمَ. يُصْلَوْنَ بِنارِها المُحيطَةِ بِهِمْ مِنْ كُلِّ جانِبٍ.

ومُجْمل المَعنى

أَنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالَى خَلقَ الإِنسانَ لِيكِدَّ ويتعبَ في هاتِهِ الحَياةِ. إلاَّ أنهُ كثيرًا مَا يَتملَّكهُ الغرُورُ إذا مَا جَلَب له كَدُّه مالاً، أَوْ جاهًا أَوْ سُلْطانًا، فيتَنَكَّرُ لِطبيعةِ خَلْقِهِ. ويَكْفُرُ بنعمةِ اللهِ عليهِ، ويكونُ بِذلِكَ مِنْ أَصْحابِ المَشْأَمَةِ.

لِنتأمّل

قَالَ الرئيس الحبيب بورقيبة مُتحدِّثًا عن عيدِ الشغْلِ :

«إِنَّ الشُّغْلَ عيدُ كلِّ عاملٍ مَهمَا كانَ جِنْسُ عَمَلِه أَوْ نَوْعه. وليسَ مَفهومُ الشغلِ مَقصورًا على مَنْ يَحْمِل رَفشًا، أَوْ يجُرُّ عَربَةً بلْ هُو شاملٌ لِكُلِّ مَنْ يَكِدُّ لِخيْرِ المجْتَمَعِ، وصَالِحِ الوَطَنِ. سواءٌ بِساعِدِهِ. أوْ فِكْرِه. أَوْ رأيِهِ. أَوْ أَيَّةِ جارِحَةٍ مِنْ جَوارِحِهِ. فهَذَا اليومُ إِذَنْ عيدُ كلِّ العاملينَ لِخيرِ أُمّتِهِم».

لِنُعلّق

لِكُلِّ أمّةٍ أَعيادُها الوطنيةُ القوميةُ، وأعيادُها الدينيةُ. و كلُّها أعيادٌ خاصةٌ تمتازُ بِها علَى سائِرِ الاممِ الأُخرَى

إِلاَّ أنّ هناكَ عيدًا واحِدًا أَعمَّ، وأَشْمَلَ يجْمَعُ بينَهَا جَميعًا، وَتتّحدُ كلُّها في الاحتفالِ بهِ. وهذَا العيدُ هوَ عيدُ الشغْلِ، ويَقَعُ في غُرَّةِ مَاي مِنْ كلِّ سَنةٍ. وفي الاحتفالِ بهِ في هذا الإِجماعِ العظيمِ، تَمْجيدٌ للعاملينَ الكادِحينَ، وتقديرٌ لِفضْلِ العَمَلِ على الناسِ أجمعينَ.

سُورَةُ الفَجْر

أَسْبَابُ ٱلنُّزُول

تَقَدَّمَ لنَا في سُورَةِ الشمسِ أنَّ اللهَ سبحانَه وتعالَى ضَرَبَ لِمشْرِكِي قريشٍ مثلاً بِقَوْمِ ثمودَ، وبِما حَلَّ بِهِمْ من شديدِ العذابِ للتَّذْكِرةِ والمَوْعِظةِ. علَّهُمْ يُقْلِعونَ عمَّا كانُوا فيهِ من تكذيبٍ لِلنبيءِ محمدٍ صلى الله عليه وسلَّم. وهْوَ جلَّ وعَلاَ. في هذهِ السورةِ يَزِيدُ، فيذكِّرُ من جديدٍ بِقومِ ثمودَ هؤلاءِ. ثمَّ يُعزِّزُ ذلكَ. فيضرِبُ مثلاً آخرَ بِقومِ عادٍ ، الذينَ كذَّبوا رسولَهم هُودًا. فسخَّرَ اللهُ عليهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا عاتِيَةً. لم تُبْقِ منهم أَحَدًا. ثمَّ يُضيفُ فيضرِبُ مثلاً ثالثًا بِفرْعونَ الذِي كذَّبَ سيدَنا موسَى عليه السلامُ، وتوعَّدَهُ بالقتْلِ. فمَاتَ غريقًا بالبَحْرِ الأَحْمرِ. جزاءَ عِنادِه وكفْرِه.

◆ قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ ﴿1﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿2﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿3﴾
وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿4﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي
حِجْرٍ ﴿5﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿6﴾
إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿7﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ
﴿8﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿9﴾ وَفِرْعَوْنَ
ذِي الْأَوْتَادِ ﴿10﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿11﴾ فَأَكْثَرُوا

فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿12﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ
﴿13﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿14﴾ فَأَمَّا ٱلْإِنسَانُ إِذَا
مَا ٱبْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ ﴿15﴾ فَيَقُولُ رَبِّيٓ
أَكْرَمَنِ ﴿16﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ
رِزْقَهُ ﴿17﴾ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَانَنِ ﴿18﴾ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ
ٱلْيَتِيمَ ﴿19﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿20﴾
وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿21﴾ وَتُحِبُّونَ
ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿22﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ
دَكًّا دَكًّا ﴿23﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا
صَفًّا ﴿24﴾ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ﴿25﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ
ٱلْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿26﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي
قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿27﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ
أَحَدٌ ﴿28﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿29﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا
ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿30﴾ ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً
مَّرْضِيَّةً ﴿31﴾ فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ﴿32﴾

لِنتفهّم

وَالفَجْرِ ،ولَيالٍ عَشْرٍ، والشَّفْعِ والوَتْرِ، واللَّيْلِ إذَا يَسْرِي، هَلْ فِي ذَلِك قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ.

وَالْفَجْرِ : الفجرُ هو الوقتُ الذي يظْهَر فيهِ ضوءُ النهارِ، وتَزولُ معهُ ظلمةُ الليلِ. والمقصودُ بالفجرِ هنَا هوَ فجْرُ يومِ عيدِ الأَضْحَى المبارَك.

وَلَيَالٍ عَشْرٍ: هيَ الليالِي العشرُ الأُولَى منْ شهرِ ذِي الحجَّةِ الحَرامِ.

وَالشَّفْعِ وَالوَتْرِ :الشفْعُ لغةً هوَ كلُّ عددٍ زَوْجِيٍّ كَ2 و 4 و 6 وهلمَّ جرًّا. والوَتْرُ هوَ كلُّ عددٍ فرديٍّ كا1و 3و 5 إلىً غيرِ ذَلِك. والمقصودُ بهِمَا هُنا هُمَا يَوْمَا العَاشِرِ والتَّاسِعِ منْ ذِي الحجَّةِ، إذِ اليَوْمُ العاشِرُ هو يومُ النَّحْرِ، واليوْمُ التاسِعُ هوَ يوْمُ عَرفَةَ. وهُما من مَناسِكِ الحَجِّ التِي يَتعَيَّنُ علَى كُلِّ حاجٍّ أن يقُومَ بِها لِيَصِحَّ حجُّهُ.

يَسْرِي مضارع سَرَى بمعنَى سارَ لَيلاً. وسَرَى الليلُ أيْ مضَى وذَهَب وزالت ظلمتُه بِطلوعِ الفجرِ.

حِجْر :الحِجْرُ هو العَقْلُ.

وَالمَعْنَى قَسَمًا يا محمدُ بِفَجْرِ يوْمِ عيدِ الأَضْحَى، إذْ فِيهِ يَفرح المسلمُ بِأداءِ فريضَةِ الحجِّ، التِي تَحمَّلَ المَشاقَّ في سَبيلِهَا، ويَستبْشِرُ بِقرْبِ العَوْدةِ إلى الأَهْلِ والوَطَنِ ؛ وقَسَمًا بِالليالِي العشْرِ الأُولَى مِنْ شهرِ ذِي الحجةِ الحَرامِ، لِما فِيهَا مِن حِكْمَةِ التَّهيُّؤِ لَيلَةً فليلةً لِلْقيامِ بِمناسِكِ الحَجِّ المفرُوضَةِ، وهيَ الطَّوافُ، والسَّعْيُ بيْنَ الصَّفا والمَرْوَةِ، والوُقوفُ بِجبلِ عَرفات ؛ وقَسَمًا بِالشفعِ والوَتْرِ، وهُما اليومُ العاشِرُ واليومُ التاسِعُ مِن شهْرِ ذِي الحِجَّةِ الحرامِ، إذْ فِيهما يَجْتَمِعُ شمْلُ المُسْلِمِينَ،وَقَدْ أَتوْا من مَشارِقِ الأَرْضِ ومَغارِبها، فتبرُزُ وَحدَتُهم، وتَنْطلِقُ أَلسنَتُهم علَى اخْتِلافِ أَلوانِهم وَلغاتِهم بقولةٍ وَاحدةٍ: «لَبّيْكَ اللَّهمَّ لَبّيْكَ... » وتجْتَمِعُ قلوبُهم على الاحتِفالِ بِذكرَى

وَاحدةٍ، هيَ ذِكرَى فِداءِ إسماعيلَ، بما يَنحَرونَهُ من غنمٍ، ومَعْزٍ، وَإبلٍ، اقْتِداءً بِسُنَّةِ سيِّدِنا إبراهيمَ عليهِ السلامُ. وَقَسَمًا بِالليلِ إذا يَسْرِي، فيسارِعُ إلى نِهايتِهِ. إذْ في انتِهائِهِ. وَزَوالِ ظُلْمَتِهِ، انْبِثاقِ ذلكَ اليوْمِ السعيدِ، وهْوَ يوْمُ عيدِ الأَضْحَى المُبارَكِ. قَسَمًا يا محمدُ بكلِّ ما ذكَرْناهُ لَكَ منْ أدلَّةٍ سَاطِعَةٍ يُسَلِّمُ بِها كلُّ ذِي عَقْلٍ رَاجِحٍ سَليمٍ، أنَّنا مُعذِّبُو المكذِّبينَ بِرِسالَتِكَ. والمقاومينَ لِدعوتِكَ من كفارِ قريشٍ. وأنّنا لهُمْ بالمِرصادِ.

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ.

عَاد: قبيلةٌ من قبائلِ العربِ القَديمةِ كانَتْ تسكُنُ جَنوبَ الجَزيرَةِ العربيَّةِ.

إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ: إرم عاصمة ملكها. وقد اشْتهرتْ بِعظَمَةِ مَبانِيها وَارتِفاعِها الشاهِقِ، وكانتْ فَرِيدَةً في نَوْعِها، وعَصْرِها. لَمْ يُخْلَقْ مِثلُها فِي البِلادِ. كما وَصفَها اللهُ تعالى فِي هذِهِ السورةِ.

وَالْمَعْنَى: أَلَمْ تَعْلَمْ يا محمدُ ما حلَّ بقومِ عادٍ من دَمارٍ وخَرابٍ، بِالرغمِ عما كانُوا عليهِ من قوةٍ وعظمةٍ. إذ أرسَلْنَا عليهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا عاتِيَةً دامتْ سَبْعَ ليالٍ، وثمانيةَ أيامٍ. لَمْ تُبْقِ منْهُم أحَدًا. عِقابًا لهم على ظُلْمِهم وطُغيانِهم. وتَكذِيبِهم لِنبيِّهم هُودٍ عليه السلامُ.

وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ

جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ: أيْ قَطَعُوا الصخْرَ. ونَحتُوهُ. وَأَقامُوا بهِ منازِلَ شاهِقةً. مُرْتَفعةً لِسُكْناهم، وبَنَوْا سُدُودًا لِخزْنِ مِياهِ الأمْطارِ والعُيونِ. بِذلكَ الوادِ الذي كانوا يُقيمُونَ بِهِ. وفي هذَا كِنايةٌ على ما كانتْ عليهِ قَبيلةُ ثمودَ منْ قُوَّةٍ وعظَمَةٍ، وتقدُّمٍ في الحضارَةِ والرُّقيِّ.

وَالْمَعْنَى: ثُمَّ أَلَمْ يَبْلُغْكَ يا محمدُ. ما نَزَلَ أيْضًا بِقوْمِ ثَمُودَ من نَقْمَةٍ، وقدْ كانتْ على ما تَعلَمُ منْ عَظمَةٍ وقوَّةٍ، إذْ أخذنَاهُم بِصيْحَةٍ

مَهولةٍ أَبادتْهُم ممن آخِرِهم. عِقابًا لهمْ على ظُلْمِهم، وطُغْيانِهم. وتَكذِيبِهم لِنبيِّهم صَالحٍ عليه السلامُ.

وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ :

وَفِرْعَوْنَ آسمٌ يُطلَقُ عَلَى مُلوكِ مِصرَ القُدامَى . وَالمقصودُ بِفرْعَوْنَ هَـهُنَا مَلِكُهَا فِي زَمنِ سيدِنا مُوسى عليهِ السلامُ .

الأَوْتَادِ : جمْعُ وَتَدٍ. والوَتدُ لغةً هو قِطعةٌ مِنْ خَشَبٍ يُنْجَرُ طرَفُها، وتُدَقُّ فِي الأَرضِ. لِيُربطَ فيها حبلُ الخيمةِ. والمقصودُ بِالاوتادِ هُنا هيَ الأَهرامُ التي شَيَّدَها فرعونُ في عهدِهِ. وهيَ باقِيةٌ إِلى اليومِ. عَلَى ما كانتْ عليهِ من عظمةٍ. وإِحكامٍ في بُنْيانِها. يزُورُها السَّيَّاحُ. كلَّما زارُوا بلادَ مصرَ.

وَالمعْنَى : ثمَّ أَلَمْ يأْتِكَ يا محمدُ. نبأُ فرعونَ المباهِي بِعظمتِهِ. والقائِلِ: «أَنا ربُّكُمُ الأَعلَى» إِذْ أَغرقناهُ هوَ ومَنْ معَهُ. فِي البَحْرِ الأَحْمرِ، عِقابًا لهُ ولهُمْ على ظُلْمِهمْ. وطُغيانِهمْ. وتكذِيبِهم لِنبيِّنا موسى عليهِ السلامُ.

ٱلَّذِينَ طَغَوْا فِي البِلادِ . فَأَكْثَرُوا فِيهَا ٱلْفَسَادَ . فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ :

فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذاب : صَبَّ الماءَ: سكبَهُ، وصبَّ عليهِ البَلاءَ: أَرْسَلَهُ، وأَنزَلَهُ بِه بشدَّةٍ. وفِي هذِهِ الآيةِ تَشبيهٌ مُفادُهُ أَنَّ العذابَ كانَ يَنزِلُ بِهمْ مثْلَ السَّوْطِ فِي شِدَّةِ وقْعِهِ. وتوَالِي ضَرَباتِهِ.

وَالمَعْنَى : وَيتلخَّصُ لكَ يا محمدُ. مِنْ كلِّ ما سَبَق. أَنَّ جميعَ هؤُلاءِ الأَقْوامِ الذينَ تقدَّمَ وصْفُهم. قَدْ نالَ كلُّ فَرِيقٍ منهُمْ مَا يَستحقُّهُ مِنْ عَذابٍ جَزاءَ طغيانِهم. وظُلْمِهم. وإِكثارِهم مِنَ الفَسادِ فِي الارضِ. وتَكذيبِهم لأَنْبيائِهمْ.

إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ :

المِرْصَاد لغةً هو مَكانُ الرَّصدِ. وَالمقصودُ بِهِ هُنا رَقابةُ اللّٰهِ، وتعقُّبُهُ لِكلِّ ما يَصْدُر عَنْ خَلقِهِ منْ خَيْرٍ أَوْشرٍّ.

وَالمَعْنَى: وسَيَكونُ كذلكَ يا محمدُ مَصيرُ مُشرِكِي قريشٍ، إِنْ هم تَمادَوْا فِيمَا هُمْ فيهِ الآنَ مِنْ طُغيانٍ، وتَكذيبٍ لِرسالتِكَ. إِذْ نحنُ لَهم بالمِرْصادِ، نَتَعَقَّبُ أَعْمالَهم، ونُراقِبُ حَركاتِهم وسَكناتِهم.

فَأَمَّا الإِنْسانُ إِذَا مَا ٱبْتلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقولُ رَبِّيَ أَكْرَمَنِي وَأَمَّا إِذَا مَا ٱبْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِي كَلَّا:

ٱبْتلاهُ رَبُّهُ: أَيِ ٱخْتبرَهُ وَٱمْتَحَنَهُ لِيعرِفَ حقيقةَ أَمْرِهِ.

فَأَكْرَمَهُ ونَعَّمَهُ: أَيْ فضَّلَه وأَغْدَق عليَهِ منْ نِعَمِهِ، وَبَسَطَ لهُ فِي الرِّزْقِ.

قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ: أَيْ ضَيَّقَ عليْهِ فِي الرزْقِ، وصيَّرَه فَقيرًا.

أَهَانَنِي: ضَد أكْرَمَنِي أي ٱحْتقرَنِي، وحَرَمني مِنْ عِنايتِهِ.

وَالمَعْنَى: وَفِي الواقِعِ يا محمدُ، فَالإِنسانُ أَمْرُه غَريبٌ. فإِنْ نحْنُ أكرَمْناه، ونعَّمْناهُ، ووسَّعْنا عليه، وأغنيْناه، قالَ: ربِّيَ أكرمَنِ وذَهَبَ به الزَّعْمُ إلى أَنَّ ما أَصْبحَ عليهِ منْ مَنْزلةٍ وحُظْوَةٍ، يجعله في حِلٍّ منْ أوامِرِنا ونَواهِينَا، فَيَنْساقُ في طريقِ الغُرورِ، ويَستحِلُّ المحرَّماتِ، ويَستبيحُ المَحظورَاتِ، وهَذا فِي حِينِ أَنَّ إكرامَنا إيَّاهُ، إِنَّما هوَ ٱبتِلاءٌ لِسلوكِهِ، وٱمْتحانٌ لِمدَى تَوفُّقِه فِي صَرْفِ هَذِهِ النِّعَمِ فِيمَا يَعودُ عليْهِ وعلَى غَيْرِه بِالفائِدةِ، والخَيْرِ العَميمِ.

وَإِنْ نحنُ قدَرْنا عليهِ رزْقَهُ وٱمْتحناهُ بالفقرِ وضِيقِ الحالِ، قالَ: ربِّيَ أَهانَنِ، وذهَبَ بهِ الزَّعمُ إلى أنَّ ما بَاتَ عليهِ منْ سوءِ الحالِ يَجْعلُهُ في حِلٍّ مِنِ ٱتِّبَاعِ أوامِرِنا ونَواهِينا، فيَرْكُدُ ويَسْتَسْلِم، وتُسوِّلُ لهُ نفْسُه ٱرْتكابَ المَعاصِي، ويَلْتحِقُ بِزُمْرَةِ المُفسِدِينَ. وهَذا فِي حينِ أَنَّ مَا بَلَوْنَاهُ بهِ مِنْ فَقْرٍ، إنَّمَا هوَ ٱخْتبارٌ لِمَدَى صَبْرِهِ على تَحمُّلِ مُرِّ الحياةِ، وٱمْتِحانٌ لِقوَّةِ عَزيمَتِهِ، وكَدِّهِ وجِدِّهِ لِلخروجِ من

الضِّيقِ الذي هوَ فيهِ. تلْكَ هيَ الحِكْمةُ في ابْتِلائِنا الإنْسانَ في حَالَتِي اليُسْرِ والعُسْرِ، وَأَنَّ ما ذهبَ إليهِ من زَعْمٍ فَباطِلٌ. وكَلاَّ ثمَّ كَلاَّ أنْ يكونَ الأمْرُ كمَا زَعَمَ!

بَلْ لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ. وَلاَ تَحُضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ. وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمًّا، وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا كَلاَّ

لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ: أيْ لا تُحسِنونَ مُعامَلَتَه، ولا تُعْنَوْنَ بِتَرْبِيَتِهِ.

وَلاَ تَحُضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ: أيْ ولاَ تحُثُّونَ أنفسَكم، وغيْرَكم، على إطعامِ العاجِزِ المُحْتاجِ.

وَتأكلونَ التُّرَاثَ أكْلاً لَمًّا:

التُّراثُ: هوَ المِيراثُ. وَالتعبيرُ بالأَكْلِ في هذهِ الآيةِ الكَريمةِ تعبيرٌ مَجازِيٌّ علَى غيرِ وجْهِهِ الحَقيقِيِّ. ومعْنَى ذلك، أنكُمْ تَحتالونَ بِمُخْتَلَفِ الحِيَلِ للاستيلاءِ علي ما يُخلِّفهُ الميتُ من مِيراثٍ بعدَ وفاتِهِ مِنْ مالٍ، وعَقارٍ، وتُحرِمونَ منْهُ المُستَحِقِّينَ مِنْ أبنائِه، وأَهْلِهِ وفِي هَذا جَوْرٌ وظُلْمٌ.

وَالمعنَى: ومِنَ الأدلَّةِ علَى جَشَعِكم وحُبِّكم لِلدُّنْيا أيُّها المَغْرورُونَ أنكُم تَتهاوَنونَ بِحقِّ اليَتيم، فتُهْمِلُونَ شأْنَهُ، وتَستأثِرونَ بِمالِهِ، وتَبْخَلُونَ بالطَّعامِ علَى المِسْكِينِ الجائِعِ، وتَحُثُّونَ غيرَكم عليهِ، وتَستولُونَ علي ما يُخلِّفهُ الميتُ منْ ميراثٍ بعدَ وفاتِهِ، وتُحرِمونَ الوارِثَ من حقِّهِ في المِيراثِ، فتَسْتَحْوِذونَ عليهِ. وتأْكُلونَهُ أكْلاً لَمًّا. ثمَّ إنكمْ معَ هذا كلِّه تُحبُّونَ المالَ حُبًّا جَمًّا، وتَتَحَيَّلونَ في جَمْعِه بِشَتَّى الوَسائِل، سواءٌ عليكم أكانتْ مِنْ حَلالِكم أوْ مِن حَرامِكم. وعلَى هَذا فَباطِلٌ مَا تزْعُمونَ مِنْ أنكم مُسلِمونَ علَى مِلَّةِ أبيكم إبراهيمَ. وَكَلاَّ ثمَّ كَلاَّ أنْ يكونَ الأمْرُ كمَا زَعَمْتُمْ!

إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ، يَقُولُ يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ:

دَكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا : الدَّكُّ لغةً هوَ الهَدمُ. ودكتِ الأرضُ أي نُسِفتْ جبالُها ومرتفعاتُها. وسُوِّيَتْ بوجْهِها. وتكرارُ المفعولِ المطلَقِ هُنا «دكاً دكاً» يُفيدُ تتابعَ الهدْمِ بشدةٍ حتَّى صارتِ الأرضُ كالهَباءِ المَنْثورِ. وفِي هَذا كنايةٌ علَى حُلولِ يوْمِ القِيامَةِ.

اَلمَلَكُ : مفرد مَلائِكة. والمَلائِكة هُمْ أَرْواحٌ سَماويَّةٌ كَجبْريلَ عليْهِ السلامُ، الذِي نَزَلَ بالوَحْيِ على سيِّدِنا محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ.

وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى : أنَّى أداةُ استفهامٍ بمعنَى كيْفَ. والذكْرَى هيَ المَوْعِظة أيِ وكَيْفَ تَحْصُل له المَوْعِظةُ، وينفَعُهُ النَّدمُ ؟ فِي حينِ أنَّهُ فاتَ أوَانُ ذلِكَ. وجَاءَ يومُ الحِسابِ.

وَالمَعْنَى: فِي هذِهِ الآياتِ الكريمةِ تصويرٌ ليومِ القِيامةِ. وهو اليومُ الذِي تحاسَبُ فيهِ كلُّ نفسٍ علَى ما قدمَتْ فِي الحَياةِ الدنيا من خيرٍ أوْ شرٍّ. ومنْ عَلاماتِه ارْتِجاجُ الأَرضِ. وزَوالُ جِبالِها، وتجلِّي سُلْطانِ اللهِ تعالى. وظُهورُ الملائكةِ صَفًّا صَفاً. وبُروزُ جهنَّمَ لِلناظرينَ وهْوَ لعَمْرِي يوْمٌ رَهيبٌ. يأخذُ بقلبِ الشقيِّ. فيَتَملَّكُهُ الرُّعْبُ، ويندَمُ علَى ما جَنَتْهُ يدَاهُ في حَياتِه، ويَقولُ : يَا ليتَنِي قدَّمتُ لِحياتِي ! ولكِن هَيْهاتَ أنْ ينفَعَه الندمُ، إذْ أنَّ الذِي سيتَولَّى عذابَهُ فِي ذلِكَ اليومِ. وشدَّ وَثاقِهِ بالسلاسِلِ وَالاغلالِ، هُوَ اللهُ سبحانهُ وتَعالى، وعذابُ اللهِ لايُقابِلُه عذابٌ .

يَا أَيَّتُهَا النفسُ المُطمَئِنَّةُ ، ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً. فَادْخُلِي فِي عِبادِي ، وَادْخُلِي جَنَّتِي:

النفسُ المُطمَئنَّةُ : المؤْمِنَةُ. المُرْتاحَةُ، الرَّاضِيَةُ عنْ أَعمالِها في الدنْيَا. والمقصودُ بِها هُنا الإنسانُ الخَيِّرُ.

وَالمْعنَى : أَما النفسُ المؤْمِنةُ المُطمئنَّةُ، التِي لمْ يَستَولِ عليْهَا الجَشَع في الحَياةِ، ولَمْ تَنْزلِقْ فِي مَهاوِي الغُرورِ والفَسادِ، فإنَّها سَتكونُ رَاضِيةً مَرْضِيًّا عنها وَعَنْ أعمالِها في الدنْيا، وسَيكُونُ جزَاؤُها جنَّةَ الخُلْدِ، تنعَمُ فِيها بالسَّعادَةِ والهَناءِ.

ومُجمَلِ المَعْنى

أنَّ اللهَ سبحانَهُ وتعالىَ أقسَم بِفَجرِ يومِ عيدِ الأَضْحَى. وبِالأَيامِ العَشْرِ الأُولى منْ شهْرِ ذِي الحِجَّةِ الحَرامِ، كَما أَقْسَم بِيوْمِ النَّحْرِ. وِيَوْمِ الوُقوفِ بِجَبلِ عرَفَاتٍ، أنَّهُ معذِّبُ الكفَّارَ، وسَاقَ لِذلكَ أمْثلةً لِما حَلَّ بِعادٍ، وثَمودَ، وفِرْعوْنَ مِنْ شديدِ العَذابِ نَتيجَةً لِكفرِهم وطُغيانِهِمْ. ثُمَّ تعرَّضَ بَعْدَ ذلِكَ لِلإنسانِ عامةً فأَكَّدَ ابْتِلاءَهُ في حالتِي السَّعَةِ والفَقْرِ. وتوعَّدَ كلَّ مَنْ يَستأثِر بِمالِ اليَتيمِ، ولا يَحُضُّ علَى طعامِ المِسكينِ، بِسوءِ المَصيرِ. وبَشَّرَ النفسَ المُطمئنَّةَ الفاعِلَةَ لِلخيْرِ بِحُسْنِ المَآلِ.

في حقل التربية
(مطالعات)

لِنتأمّلْ

جاءَ في قِصَصِ العرَبِ القُدامَى (بتصرُّفٍ):

كانَ أبو رِغالٍ مَلِكًا بِالطائِفِ، وهيَ مدينةٌ بِالحِجازِ تقَعُ جنوبي شرْقي مكةَ، اُشتهرتْ بِالعنبِ العذْبِ، ويُضرَبُ المثَلُ بزبيبِها الجيِّدِ. وكانَ هذا الملكُ ظَلومًا لِرعيَّتِه، لا يَعرِفُ الشفقةَ على الضُّعَفاءِ. ولا تدْخُلُ الرَّحْمةُ قَلْبَه. فمَرَّ ذاتَ يومٍ بِامْرأةٍ تُرْضِعُ صَبيًّا يَتيمًا، بِلَبَنِ عَنْزٍ لَها، وكانتِ السنةُ مُجدِبَةً، فافْتكَّها مِنْهَا غيرَ مُبالٍ بِتوسُّلاتِها، وحرَمَ ذلكَ الرَّضيعَ منْ غِذائِهِ الضَّروري، غيرَ عابِئٍ بِمصيرِهِ بعدَ أخْذِه لِمرْضِعَتِهِ.. وفِعلاً، اُعتلَّ ذلكَ الصبيُّ، وعانَى المرضَ أياماً، ثمَّ ماتَ ضحيةَ سوءِ التَّغذِيَةِ ولكنَّ اللهَ بِالمرصادِ لكلِّ طاغيةٍ جبَّارٍ، فرمَى أبا رِغالٍ بِقارِعَةٍ أهْلكَتْهُ، وماتَ بِها شرَّ ميتةٍ. ولما دُفِنَ بينَ مكَّةَ والطائفِ، تجمَّعَ العربُ، ورَجَمُوا قبْرَه.

لِنُعلِّقْ

لقدْ تبْدُو هذِهِ القصَّةُ غَريبةً أوْ مُبالَغًا فِيها. ولكنَّ الحَياةَ في الواقِعِ لا تخْلُو من قُساةٍ ظالمينَ! وإلاَّ فما قوْلُكَ في وَصِيٍّ يَستأثِرُ لِنفسِهِ بِمالِ مُوَصَّاهُ القاصِرِ، ويَحرِمُه من حقِّهِ الشرعيِّ فيمَا خلَّفَه لَهُ والِدُه؟ أليْسَ في هذا التصرُّفِ قسوةٌ في القلْبِ، وأنانيَّةٌ في النفسِ، وامْتِهانٌ للضَّعيفِ؟ ثمَّ ما قوْلُكَ في فلاَّحٍ غَنِيٍّ، ذِي سَطوَةٍ وَجاهٍ يعتدِي على رِزقِ جارِهِ الضعيفِ، فيُرْسِلُ عليْهِ غنَمَهُ ليلاً تأكلُ نبتَ أرْضِهِ، وتَعيثُ فيهَا فسادًا؟ والرُّعاةُ مِن ورائِها يَحرُسُونَها بِالعِصِيِّ والهَراوِي، والوَيْلُ كلُّ الوَيْلِ لِهذَا الضَّعيفِ إنْ هوَ تصدَّى لِلدِّفاعِ عَنْ رزقِهِ! أليسَ في هذا ظُلمٌ وَاسْتِبْدادٌ لا يَقِلُّ عَنْ ظُلمِ وجَوْرِ أبِي رِغالٍ؟

وَلكِنْ إذا قلْنا إنَّ الحياةَ لا تخلُو من قُساةٍ ظالمينَ كهؤُلاءِ الذِين ذكَرْنا، فهِيَ في الواقِعِ لا تخْلُو مِنْ ناسٍ خَيِّرينَ، شِيمَتُهُمُ العدلُ، وإنْصافُ الغيْرِ، وحبُّ الخيرِ لِلجميعِ.

والعاقلُ منْ تنكَّبَ عن سُبُلِ الشرِّ، وانْتهجَ سُبُلَ الخيرِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (1) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ
خَاشِعَةٌ (2) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (3) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً
(4) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (5) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ
إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (6) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (7) وُجُوهٌ
يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (8) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (9) فِي جَنَّةٍ
عَالِيَةٍ (10) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (11) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ
(12) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (13) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (14)
وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (15) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (16)
أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ
(17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ
كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ
(20) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ
(22) إِلَّا مَنْ تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ (23) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ
الْأَكْبَرَ (24) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26)

سُورَةُ الغاشِيَة

أسْبابُ النُّزُول

فِي هَذه السورةِ كما سَنرَى مقابلةٌ بينَ أهلِ الشقاءِ، وبينَ أهلِ السعادةِ، يومَ القيامةِ. وفِي الوقتِ الذِي يصِفُ فيهِ اللهُ عزَّ وجلَّ أهلَ الشقاءِ بالذلةِ، والمسكنةِ، وسوءِ الحالِ، يصِف فيه أهلَ السعادةِ بالبِشرِ، وراحةِ النفسِ، وحُسنِ المآلِ، وأنْعِمْ بهِ من مآلٍ، إذْ هي جنةُ الخلدِ فيها عينٌ جاريةٌ، وفيها سُرُرٌ مرفوعةٌ، وأكوابٌ مَوْضوعةٌ، ونمَارِق مصفوفةٌ، وزَرابيٌّ مبثوثةٌ، ثمَّ، ولا تُسمَعُ فِيها لاغيةٌ.

ولما عِلِمَ كفارُ قريشٍ جُملةَ هذهِ النعوتِ التي وُصِفتْ بِها الجنةُ عجِبُوا، واخْتلفوا، وكان منهم المصدِّقُ والمكذِّبُ والمنكِرُ. فردَّ اللهُ عليهم بأنَّ القادرَ على خلقِ الإبلِ، والسماءِ، والارضِ، والجبالِ، قادِرٌ على خلقِ الجنَّةِ بما وُصِفتْ بهِ من نعيمٍ.

◆ قال تعالى:

لِنتفهم

هَلْ أتَاكَ حَدِيثُ الغَاشِيَةِ: بِمعنَى هل سمِعْتَ، وهل بلغكَ أيهَّا الإنسانُ خبرُ الغاشيَةِ أي يومِ القيامةِ، وما فيهِ من هَوْلٍ يغشَى النفوسَ، ويَستولِي عليْها. وليس الاستفهامُ هُنا لِطلبِ الفَهمِ كما تقولُ مثلاً: هل حفِظتَ درسَكَ؟ بلْ هوَ لِتعظيمِ شأْنِ يومِ القيامةِ حتى يَرهَبَه السامِعُ، ويَستعِدَّ لهُ بالعمِلِ الصالحِ.

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ. تَصْلَى نارًا حَامِيَةً، تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ:

فِي هذهِ الآياتِ الكريمةِ تصويرٌ لِحالِ الأشقياءِ في ذلكَ اليومِ المَهولِ. وقدْ خصَّ اللهُ الوجوهَ منهمْ بالوصفِ لِأنَّ الوجوهَ كما يُقالُ مِرآةٌ تنعكِسُ عليْها خبايَا النفوسِ وانفِعالاتُها، فنعَتَها بالخاشِعةِ، العاملةِ الناصِبةِ، لِبيانِ ما انتشَرَ عليهَا منَ الذُّلِّ، ومعالِمِ الندَمِ على مَا قدَّمَتْه فِي الدنيَا من أعمالٍ باطِلةٍ لم تجنِ منْهَا في هذا اليومِ الرهيبِ إلاَّ التعبَ والشقاءَ، ثمَّ زادَ تعالَى فشفَعَ هذا الوصفَ بِما ينالُهم منْ شديدِ

العذابِ المتمثِّلِ في اصطِلائِهِم، واحتراقِهم بالنارِ الحامِيَةِ، وحِرمانِهم مِنْ لذةِ الشرابِ والأكْلِ، إذْ هُمْ إذا عطِشوا كان شرابُهم منْ عَيْنٍ آنيةٍ لا تُطاقُ حرارتُها وإذا جاعوا كان طعامُهم منْ ضَريعٍ أي من سَقْطِ النباتِ الشائِكِ، الذي لا يُسمِنُ ولاَ يُغني مِنْ جُوعٍ.

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ، لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ، فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ، لاَ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً، فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ، فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ، وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ، وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ، وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ: وفي هذهِ الآياتِ الكريمةِ تصويرٌ أيضاً، ولكِنَّهُ تصويرٌ لِلجانِبِ المُقابِلِ للقوْمِ الأشقِياءِ وهُمْ أهْلُ السعادةِ. وقد خصَّ اللهُ كذلِكَ الوجوهَ منهم بالوصفِ، فنَعَتَها بالناعِمةِ الراضيةِ لِسعْيِها في الدنيا، الرَّافِلةِ في رحابِ جنَّةٍ عاليةٍ، لا تُسمَع فِيهَا لاغِيةٌ أي مَالا خيْرَ فيهِ مِن الكَلامِ. وقد نَعَتَها اللهُ بجملةِ هذِهِ الأوْصافِ لِتمييزِها عنْ وجوهِ أهْلِ الشقاءِ، ولِبيانِ ما شَعَّ علَيْها مِنْ نُورٍ، نَتيجةً لِرِضاها عنْ سَعْيِها الصالحِ في الدنيا. ثم زادَ تعالَى، فشفَعَ هذا الوصفَ بتَعدادٍ مُفصَّلٍ لأنعُمِ الجنةِ، وذلك لِبيانِ ما أعِدَّ لِهؤلاءِ السُّعَداءِ من وَسائِلِ المُتْعَةِ المتمثِّلَةِ في عَيْنٍ جاريَةٍ ماؤُها زُلالٌ لا يَنْضَبُ، وفي سُرُرٍ مَرفوعَةٍ عاليةٍ تُطِلُّ على ما حَوْلَها من بَديعِ المَناظِرِ، وأكوابٍ مَوْضوعَةٍ في مُتَناوَلِ يدِ كُلِّ شاربٍ، ونَمارِقَ أي وَسائدَ مَصفوفةٍ، مهيَّأةٍ لِراحَةِ كل جالِسٍ، وزرابيُّ مبثوثةٍ، منتشرةٍ، أيْنَما يتَّجِهُ النظَرُ لا يَرى إلا جَمالَ ألْوانِها الزاهيَةِ. وبِمِثْلِ هذا يُجزِي اللهُ عِبادَهُ الصالحينَ المتَّقينَ.

أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ؟

وفِي هذِهِ الآياتِ استِفهامٌ استِنكاريٌّ موجَّهٌ إلى الكفَّارِ من أهلِ قُرَيْشٍ. فكأنَّ اللهَ تعالَى أرادَ إفحامَهم بالحجَّةِ الساطِعَةِ لإبطالِ ما ذهَبوا إليهِ من تكذيبٍ ونُكرانٍ لِما جاءَ في وصْفِ يومِ القِيامةِ والجنَّةِ، فقالَ: أفَلا ينظرونَ إلى الإبلِ كيفَ خلقتْ؟ وإلى السَّماءِ كيف رُفِعتْ؟

وَإِلى الجِبالِ كيفَ نُصِبَتْ ؟ وَإِلىَ الارضِ كيفَ سُطِحتْ؟ وكلُّها من مَعالِمِ قُدرتِه جلَّ وعلاَ، الماثِلةِ لكلِ عينٍ. ومَنْ كانَ قادِرًا على خَلْقِ الإِبلِ، أفضَلِ مَركوباتِ العربِ، وأقدرِها على تحمُّلِ مشاقِّ السفرِ وحَمْلِ الاثقالِ، والصَبْرِ على العطَشِ، وعلى خَلْقِ السماءِ، وكيفَ رُفِعتْ بِلا عَمَدٍ، وزُيِّنَتْ بِالكَواكِبِ والنجومِ، وعلَى خَلقِ الجِبالِ في شُموخِها، وغَاباتِها ومُطافاتِها، وعلى خَلْقِ الارضِ وكيفَ سُطِحتْ، ومُهِّدتْ تَسْهيلاً لِعيشِ البَشَرِ فَوْقَها، لَهُوَ قادِرٌ على أن يُرْجِعَ الناسَ إلى يومٍ يُحاسَبُ فِيهِ كلٌّ علىَ ما قدَّمَ فِي الدُّنيا، وأنْ يعذِّبَ الاشقياءَ منهمْ بما وَصفَ منْ أنوَاعِ التعذِيبِ، وأن يُمتِّعَ السُّعَداءَ منهمْ بِما نعتَ مِن نَعيمِ الجنةِ.

فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ:

فَذَكِّرْ: فعلُ أَمرٍ منْ ذكَّر يذكِّر تذكيرًا. وَالتذكيرُ لغةً هو جعلُ الناسِي يَستحضِرُ فِي ذاكِرتِه ما نَسِيَ. والناسُ كلُّهم عُرْضَةٌ إلى النِّسيانِ. والمقصودُ بِالتذكيرِ هُنا هوَ تنبيهُ كفارِ قُرَيْشٍ، وحَمْلُهم علي إِعمالِ الرأيِ، وإِجالةِ النظرِ فيما حَوْلَهم منْ دَلائِلِ عَظمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، الماثِلةِ في ما تقدَّمَ ذكْرُهُ من خَلْقِ الإِبلِ، والسماءِ والارضِ، وفِي غيرِهَا من بَديعِ مَخلوقاتِـهِ الأُخْرَى. والخطابُ هُنا موجَّهٌ إلى سيدِنا محمدٍ صلي اللهُ عليه وسلمَ.

مُصَيْطِرٍ: اسمُ فاعِلٍ من صَيْطَرَ يُصَيْطِرُ صَيْطَرَةً. والصَّيْطَرَةُ هيَ التَسلُّطُ على الغيرِ، وإِكراهُهُ علَى فعْلِ مَا لاَ يَشتَهِي، أَوْ علَى الاعتِقادِ بِما لا يُريدُ .

وَالمعنى: يا محمَّدُ، حُثَّ هؤُلاءِ الكفارَ علَى التأَمُّلِ فِيما حَوْلَهم مِنْ مَعالِمِ قُدْرَتِنا، وادْعُهُمْ إلى إِعمالِ الرأْيِ فِيهَا، لَعلَّهم يَنتبهونَ من غَفلَتِهم، ويَثوبُونَ إلى رُشدِهم، فيُصَدِّقوا بِمَا جاءَ فِي ذِكْرِ يومِ القِيامةِ من نَعيمٍ وشَقاءٍ، ولا تَبتئِسْ ولا تحزَنْ إنْ هُم تمادَوْا فِي عِنادِهم، وإِنكارِهم، إِذْ رِسالَتكَ تَنْحصِر فِي التذكيرِ لا غيرُ، وليس

لكَ أَنْ تتسلَّطَ عليهِم، ولاَ أَنْ تَفرِضَ عليهِم إِرادَتَك بِالإِكراهِ والعُنْفِ.

إِلَّا مَنْ تَولَّى وكفَر فيُعَذِّبُهُ اللهُ العذابَ الأَكبَرَ:

تَوَلَّى وَكَفَرَ : أَي أَعْرَض عن الإِيمانِ، وأَبَى التَّصديقَ.

العَذاب الأَكْبَر : هوَ عَذابُ جهنَّمَ الدائمُ، وهو أَشدُّ أَنواعِ التعذيبِ وأَقسَاها. وقدْ تَوعَّدَ اللهُ بِهِ الكفارَ مِنْ عِبادِهِ خاصَّةً.

وَالمعنى : تَدرَّعْ يا محمَّدُ بِالصبْرِ، واللِّينِ، وذكِّرْ ما وسِعَكَ التَّذكيرُ. فَإِنِ اقتنَعَ الكفارُ وصدَّقوا، فَذاكَ هوَ المَطلوبُ، وإِنْ تَولَّوْا وَأَعْرَضُوا وَكَفَروا وجحَدوا فإِنَّنا معذِّبُوهم العذابَ الاكبرَ، ولا مَفرَّ لهُمْ مِنه.

إِنَّ إِلَينَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ : أَي أَنَّهم مَبعوثُونَ يومَ القيامةِ. وماثِلونَ بيْنَ أَيْدِينا، نُحاسِبُهم الحِسابَ الأَعْسَرَ، جَزاءَ تكذِيبِهم وعِنادِهم.

مُجْمَل المَعنَى

فِي هذِهِ السُّورةِ مُقابلةٌ بيْنَ ما يَكونُ عليهِ مَآلُ الكفارِ وَالمُؤْمِنينَ يومَ القيامةِ، ثمَّ تَذكيرٌ بِعظِيمِ قُدرَتِه جلَّ وعَلاَ، وتَوْصيةٌ لِلنَّبِيءِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، وحثٌّ لهُ على استِعْمالِ اللِّينِ والمُرونَةِ في تَبليغِ رِسالتِهِ للناسِ أَجْمعينَ.

لِنتأمّل

مِنَ الناسِ مَنْ يَتهافَتُ على تحمُّلِ المسؤولياتِ في المشاريعِ الخيْريةِ حُبًّا في الظُّهورِ، وطلَبًا لِلجاهِ، فيُضايِقُ أَهْلَ البِرِّ والإِحسانِ بِطلباتِه المُشطَّةِ وبِفَرْضِ إرادَتِه عليْهِمْ. وإِذا ما لَقِيَ منهم إِعْراضًا أَوْ انكماشًا، توعَّدَ وتهدَّدَ، وأَعْمل في أعراضِهِم اللسانَ بالشَّتْمِ والسِّبابِ. وبِذَلِك تَنقلِبُ الحالُ إِلَى خُصوماتٍ شَخْصِيَّةٍ تذهَبُ المشاريعُ ضَحِيَّتَها.

لِنُعَلِّق

منَ الواضِحِ أنَّ مِثْلَ هذَا السُّلوكِ لا يشجِّعُ علَى الاقْبالِ على المشارِيعِ الخيريَّةِ، ولا يُساعِدُ على ازْدِهارِها إِذْ هُوَ مَسْلَكٌ مُنفِّرٌ، قِوامُهُ التهديدُ وحبُّ السيطرَةِ على الغيرِ. والناسُ في واقِعِ الأَمْرِ لا يَنقَادونَ الاّ لِمَنْ أَحْسَنَ معاملَتَهم باللِّينِ، والإِقناعِ، والمُجادَلَةِ بالتي هيَ أحْسَنُ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿1﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ
فَسَوَّىٰ ﴿2﴾ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿3﴾ وَٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ
ٱلْمَرْعَىٰ ﴿4﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿5﴾ سَنُقْرِئُكَ
فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿6﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ
وَمَا يَخْفَىٰ ﴿7﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿8﴾ فَذَكِّرْ
إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿9﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ
﴿10﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿11﴾ ٱلَّذِي يَصْلَى ٱلنَّارَ
ٱلْكُبْرَىٰ ﴿12﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ
﴿13﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿14﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ
﴿15﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿16﴾ وَٱلْآخِرَةُ
خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿17﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿18﴾ صُحُفِ
إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿19﴾

سُورَة الأعلى

أَسْبَابُ ٱلنُّزُول

نَزلَتْ هذهِ السورةُ فِي وُجوبِ تسبيحِ اللهِ جلَّ وعلاَ، لِما أنعَمَ بِهِ علَينا منْ عَظيمِ نَعْمائِه.

◆ **قالَ تعالى:**

لِنتفهَّم

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى، الذِي خلَقَ فَسَوَّى، وَالذِي قَدَّرَ فَهَدَى، وَالذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى:

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى: أي آذكُر آسمَ ربِّك ومجِّدْه، ونَزِّهْه عنْ كُلِّ ما لا يَليقُ بِجَلالِ عَظمَتِهِ منَ الشَّريكِ لهُ في ملكِه، وذاتِه، وصفاتِه، وأفعالِه، إذْ هوَ الواحِدُ لا إلَهَ إلا هُوَ، لَيسَ كمِثلِهِ شيْءٌ، الأَعلَى المُتعالِي عن كلِّ ما يُوصَف بهِ من صِفاتِ البشَرِ. والخطابُ هنا موجَّهٌ إلى سيِّدِنا محمد (صلعم).

خَلَقَ فَسَوَّى: أي أَوْجَد كلَّ شيْءٍ فِي هذهِ الدُّنْيا، وأَحْكَم صُنْعَه.

قَدَّرَ فَهَدَى: أي أَوْدَع فِي كُلِّ مَخلوقٍ مِنْ مَخلوقاتِه من الصفاتِ، والغرائِزِ، ما يمكِّنُهُ من العيشِ، وهَداهُ إلى ما فِيهِ صلاحُ حياتِهِ.

المَرْعَى: هوَ كلُّ مَا تُنبتُهُ الارضُ مِنْ مُختلَفِ الاعشابِ.

غُثَاءً أَحْوَى: الغُثاءُ هو كُلُّ ما جفَّ ويبسَ من النباتِ. أَحْوَى: مالَ اللَّونُ منه إلى السوادِ. وهيَ حالةٌ تطْرأُ على الحَشيشِ اليابِسِ عندَما يُصبحُ هَشيمًا تَذْرُوه الرِّياحُ.

وَالمعنَى: آذكُرْ يا محمَّدُ اسمَ ربِّك، ونَزِّهْهُ عنْ كلِّ شَريكٍ، إذْ هو الأَعلَى، لاَ يُساوِيهِ أَحَدٌ فِي عَظمَتِهِ وجلالِه. أَوْجدَ الكائناتِ وأَحْكَم خلقَها وصُنْعَها، وقدَّرَ لِكلٍّ منْهَا ما تَستقيمُ بهِ حَياتُها منَ الأَسْبابِ وأنبَتَ المَرْعَى، غَضًّا طَرِيًّا، لِزينَةِ الارضِ، وعيشِ الحيوانِ، حتى

إذا ما أَينَعَ وأَزْهرَ، آعتراهُ الذُّبولُ والجَفافُ، وآنْقلَبَ هَشيمًا تَذروهُ الرِّياحُ فتتناثرَ بُذورُه لِتنبُتَ منْ جَديدٍ. وفِي هَذا إِشارةٌ إِلى تجدُّدِه على الدَّوامِ.

سَنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء آلله ! إنه يعلم الجهر وما يخفى ونيسرك لليسرى.

سَنُقرِئُكَ فَلاَ تَنْسَى : أيْ سَنعلِّمكَ القرآنَ، وسنَحْفَظكَ منْ نِسيانِه. والخطابُ موجَّهٌ هُنا أَيضًا إِلى النبيءِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ. وَفِي هَذا تَطمينٌ لِخاطِرهِ، وتهدِئَةٌ لِروعِهِ، إِذْ كانَ صلَوَاتُ اللهِ عليهِ، كَثيرًا ما يَعْتريهِ الخوفُ مِنْ نِسيانِ ما أُنزِلَ عليْهِ.

إلاَّ مَا شَاءَ اللهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى :أيْ بِاسْتِثْناءِ ما يُريدُ اللهُ أَنْ يُنْسيَكَ إِياهُ يا محمَّدُ. وإِنَّهُ فِي الوَاقِعِ لَيعلَمُ جَهرَك وسِرَّك ومدَى حِرْصِك علَى الاحتِفاظِ بكلِّ ما يُنزِّله عليكَ. وإِذنْ فَاطْمَئِنَّ ولا تخَفْ واعلَمْ أنهُ سَيكْفِيكَ ما تَخافُه، إِذِ الأَمرُ بِيدِهِ سُبحانَه وتعالَى.

وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى : أي نُهوِّنُ عليكَ الوحيَ، ونسهِّلُه لكَ، ونيسِّرُه عليكَ حتَّى تحفَظَه.

وَالمعنَى : سَبِّح يا محمدُ آسمَ ربكَ الأَعلَى، وآطمئِنَّ ولا تخَفْ، فَإِنَّنا سنعلِّمُك القرآنَ فتحفَظُه، ولا تنْسَى منهُ إِلا ما نُريدُ أَنْ نُنْسِيَك إِياهُ، وإِنَّنا لَنعلَمُ مدَى حِرْصِك على ذَلِك، فِي جَهْرِك، وسِرِّكَ، وإِنَّهُ لَعلَينا أَنْ نُهوِّنَ عليكَ هذَا الحِفْظَ وأنْ نُيسِّرَه لكَ.

فَذَكِّرْ إِنْ نَفعَتِ الذِّكْرَى سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى الذِي يَصْلَى النَّارَ الكُبْرَى ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى:

فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى : أي عِظ قَوْمَك، وآهْدِهم سَواءَ السَّبيلِ، إِذْ فِي الموعِظةِ فائدَةٌ لا تُنكَرُ.

سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى : أي سيتَّعِظُ بِوعظِك مَنْ يَخشَى اللهَ، ويخافُ عذابَه.

وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى : أَي سَيَبْتَعِـد عن وعْظِك مَنْ كانَ مُعانِدًا شقيًّا.
يَصْلَى ٱلنَّارَ : أي يَحتِرِقُ بها.
ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ : هِيَ أَسفَلُ دركاتِ جهنَّمَ . والدَّرَكةُ هِيَ الدَّرَجةُ من السُّلَّمِ بِاعتبارِ النُّزولِ، وتُقابِلُها الدرجَةُ لغةً بِاعتبارِ الصُّعُودِ.
ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ : أي النار الكبرى. والمعنيُّ بِالاصطِلاءِ بِلهَبِها هوَ ذلِكَ الأشقِيُ الذِي يَأبى المَوْعِظةَ ويتجَنَّبُها ويُعرِض عنها. وفِي هَذا إِشارَةٌ إِلى اَستمرَارِ عذابِهِ بِصفةٍ لا يُرْجَى معَها انقِطاعٌ.
وَالمعْنَى : سبِّحْ يا محمَّدُ، اَسمَ رَبِّكَ الأَعلَى، واَطمئِنَّ، ولا تخَفْ، وَامْضِ فِي وَعْظِ قومِكَ، وذكِّرْ إِذْ فِي التذكيرِ فائدةٌ سَينتفِعُ ويَعمَلُ بِها كلُّ مَنْ خَشِيَ اللهَ وخافَه. أَمَّا مَنْ جُبِلَ على العِنادِ والمُكابَرةِ فإِنَّهُ سيتجنَّبُها لا مَحالَةَ، وسَيبتعِدُ، ويُعرِضُ عَنْها. وذلِكَ هوَ الاشْقَى الذِي سَيكُونُ مَآلهُ الدرَكَ الأَسفَلَ منَ النارِ، يصْطَلِي بِلَهبِها، ثمَّ هو لا يَموتُ فِيها وَ لاَ يَحْيَى.
قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ :
أَفْلَحَ : أَي فازَ ونجَا منَ العِقابِ.
تَزَكَّىٰ : طهَّرَ النفسَ منَ الشرْكِ والذُّنوبِ.
وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ : أي نطقَ بِاسمِ اَللهِ عزَّ وجلَّ، فخشَعَ قلبُهُ له.
والمعنَى : فالمفلِحُ الفائزُ بِسعادةِ الدنيَا وَالآخرةِ، هو ذلِكَ الذي طهَّرَ النفسَ وخلَّصها من الشِّرْكِ، وذكرَ اَسْمَ ربِّهِ، فآمَنَ بِوحدانيَّتِه جلَّ وَعلاَ، وخشَعَ لهُ وَاَئتمرَ بِأَوامِرِه السَّماويَّةِ.
بَلْ تُؤْثِرُونَ الحياةَ الدنيَا وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ الأُولَىٰ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ :
بَلْ تُؤْثِرُونَ الحَياةَ الدُّنْيَا : في هَذهِ الآيَةِ رَدْعٌ وَاَستنكارٌ. وَالخطابُ فيها موجَّهٌ إِلى كلِّ أُولئِكَ الذينَ سوَّلَتْ لهُمْ نُفوسُهم الادِّعاءَ و الظَّنَّ

بأنَّهم زكَّوا النفسَ، وخشوا ربَّهم، في حينِ أنَّهم آثروا الحياةَ الدنيا، وفضَّلوها على الآخرةِ، وأقبلوا على الاستمتاعِ بلذائذِها، وأعرضوا عنِ الآخرَةِ، والحالُ أنَّها خيرٌ وأبقى.

الصُّحُف: جمعُ صَحيفةٍ، والمقصودُ بها الكتبُ السماويَّةُ والمنزَّلةُ على الرُّسُلِ، أمثالِ سيدِنا إبراهيمَ، وسيِّدِنا موسَى. وكلاهُما سابِقٌ لسيِّدِنا محمَّدٍ صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ.

والمعنَى: يا أيُّها الذينَ زعمتُمْ لِنفوسِكم الفلاحَ، وطهارةَ النفسِ، والقيامَ بِما فُرِضَ عليكم منَ الواجباتِ، اعلَموا أنَّ زعمَكم هذا لَباطِلٌ، إذْ أنتم تؤْثِرونَ الحياةَ الدنيا، وتُفضِّلونَها على الحياةِ الآخِرةِ، والحالُ أنَّ الحياةَ الآخِرَةَ خيرٌ لكم وأبقَى. وإنَّ فضلَ الآخرةِ على الدنيا، وَوَعدَ الساعِي لِلفوْزِ بسعادتِها، لَمْ يَستأثِرْ بذكرِهِ القرآنُ، بلْ هوَ مَذكورٌ مَعلومٌ في الصُّحُفِ التي سبقَتْهُ أمثال: صحفِ إبراهيمَ وموسَى. وإذَنْ فالفلاحُ الذِي ادَّعيتُموهُ لِأنفُسِكم لاَ يُمكِنُ أن يُؤتَى إلاَّ عَنْ طريقِ تَزكيةِ النفسِ، وذِكرِ اسْمِ اللهِ، والصلاةِ له، لا عن طريقِ إيثارِ حبِّ الدنيا، وتفضيلِها على الحياةِ الآخرَةِ.

ومُجمَل المَعنى

سَبِّحِ اسمَ ربِّكَ الأعلَى يا محمدُ، واذكُرْه، واطمئِنَّ، ولا تخَفْ إذْ نحن سنُعلِّمُك القرآنَ، وسنحفَظُك من نِسيانِهِ. وَعِظْ قومَك، وامْضِ في وَعْظِكَ إيّاهُم، ولا تحزَنْ ولا تبتئِسْ مِمَّنْ يُعرِضونَ عنكَ، إذِ الناسُ فريقانِ: أتقياءُ، وأشقياءُ، وأكِّدْ لهم أنَّ الفلاحَ، والفوزَ بسعادةِ الدارِ الآخرَةِ في تطهيرِ النفسِ منَ الشِّرْكِ والرَّذائِلِ، وفي ذِكرِ اسمِ اللهِ، والصلاةِ له، لا في إيثارِ حُبِّ الدنيا على الآخرَةِ، وهوَ نفسُ ما جاءَ في صُحُفِ مَنْ سَبقَكَ منَ الرُّسُلِ، أمثال: إبراهيمَ، وموسَى.

في حقل التربية
(مطالعات)

لِنتأمّل

قد تقِفُ علَى حانوتِ بائعٍ منَ الباعةِ ترِيدُ شِراءَ بِضاعةٍ ما. فَتسألُ عنِ الثمَنِ ويُصادِفُ أنْ تستغلِيَهُ. فَيَنصَبُّ عليكَ البائعُ بمحرِجاتِ الأَيْمَانِ، مُقسِماً، حالِفاً. باسمِ الجَلالَةِ، على أنَّ بضاعتَهُ أحسَنُ بضاعةٍ، وعلَى أنهُ يَبيعُها (برأسِ المالِ) ولا رِبْحَ لهُ فيها. وبذلِكَ لا يَدَعُ لكَ مُتنفَّساً، فتَسْتسلِمُ، وتَقبَلُ بالثمنِ المفروضِ عن إكراهٍ لاعَنْ رِضاً. ثمَّ يُصادِفُ أن تمرَّ بمتْجَرٍ آخرَ، فترَى نفسَ البِضاعةِ نَوْعاً وجَوْدَةً مَعرُوضَةً لِلبيعِ، فيَدفعُكَ الفُضولُ إلى السؤالِ عن ثمَنِها، فَتُباغَتُ بأنهُ أقلُّ مِنَ الثمَنِ الذي دفعتَهُ. فتأخُذُكَ الحَسْرةُ، وتأسَفُ إذْ وقعتَ في الشَّرَكِ، ولكنَّها الأَيْمانُ الكاذِبةُ قد غرَّتْكَ.

أَوْ قدْ يُصادِفُ أن تمرَّ بأحَدِ شوارِعِ أَحْيائِنا الشعبيةِ، فَتَرى جَمْعاً منَ الأَطفالِ، قدِ انْهَمَكوا في أَلعابِهم. وما هِيَ الا أَنْ يدِبَّ بينَهُم خِلافٌ ما، حتَّى يكونَ الشِّجارُ، والخِصامُ، وتَنطلِقَ الألسُنُ تتقاذفُ السبابَ. ويَشاءُ القَدَرُ أَنْ يتأذَّى سمعُكَ بالتَّطاوُلِ على مَقامِ الرَّبِّ الأعلَى، قَذْفاً بِمنكَرِ القولِ. فَتأسَفُ وتُرِيدُ أنْ تغيِّرَ المنكَرَ ولكنْ هَيهاتَ أن يُسْمَعَ لكَ قولٌ.

لِنُعلّق

هوَ كما ترَى. الاستِهتارُ بِاسمِ الجَلالةِ، يتَّخِذُهُ بعضُ التجارِ ممَّنْ فسَدَتْ أخلاقُهم ذَرِيعةً لِترويجِ بَضائعِهم، ولإغراءِ المشْترِينَ. وإِنَّها لَعَمْرِي حِطَّةٌ في النفسِ تَأباها الأَخلاقُ التجاريةُ الفاضِلةُ ! وهوَ أيضا استِخفافٌ بِاسمِ الجَلالةِ، ذلِكَ الذِي نَسمعُهُ مِنْ أبناءِ الشَّوارِعِ الذينَ لا خَلاقَ لهم. وكمْ يرقَى مجتمعُنا لَوْ نصونُ اللسانَ عن الأَيْمانِ الكاذبةِ، وبِخاصّةٍ عن التَّقاذُفِ بِاسمِ الرَّبِّ جلَّ وعلاَ، والتلفُّظِ بِما لا يَليقُ بِمقامِه.

الآيات المنتخبة

أ) للسنـة الخامسـة

1) قابيـل وهـابيل

2) قوم نـوح والطوفان

3) إبراهيم وابنـه الذبيح

ب) للسنـة السادسـة

1) موسى عليه السـلام

2) عيسى عليه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا
فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ
لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27)
لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ
إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (28)
إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ
مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ
(29) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ
مِنَ الْخَاسِرِينَ (30) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ
فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ
قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ
فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (31) .

قِصَّة قَابِيل وهَابِيل

قَابيلُ وهَابيلُ هما ابْنَا آدمَ وحوَّاءَ. كان هابيلُ مِثالَ الجِدِّ والاخلاصِ في العملِ، وحبِّ الخيرِ لِذويهِ. فكانَ بِذلكَ مَحبوبًا في قَوْمِهِ. وكانَ قابيلُ مِثالَ الكسَلِ والشُّحِّ والأَنانيَّةِ، فكانَ بِذلكَ مُبْغَضًا من الأَقارِبِ. ولِذلكَ حسَدَ أَخاهُ، وغارَ منْهُ، وعزَمَ على قَتْلِهِ. وذاتَ يَومٍ، وجَدَ أَخاهُ هابيلَ نائِمًا، واضِعًا رأْسَه على حِجارةٍ، فأَخذَ صخْرةً ثقيلةً، ورمَى بِها على رأْسِهِ، فماتَ لِحينهِ. ولما رآه ميتًا، اعْتراهُ الرُّعْبُ، والخوْفُ، وندِمَ على ما فعَلَ، وبقِيَ حائِرًا لم يدْرِ ماذا يَفْعَلُ؟ فأَبصرَ غُرابيْنِ يَقتتِلانِ، حتى قتَلَ أَحدُهُما الآخرَ، وأَخذَ ينبشُ الارضَ بِمنقارِه، ومَخالِبه، إِلَى أَنْ حفَرَ حفرةً صغيرةً دفَعَ فيها المقتولَ، وسوَّى عليهِ التُّرابَ. فقلَّدَهُ قابيلُ، ودفَنَ أَخاهُ هابيلَ، وفرَّ هارِبًا، وقضَى بقيَّةَ عمرِهِ هائِمًا على وَجْهِهِ بيْنَ الجِبالِ والصَّحارِي إِلَى أنْ هلَكَ.

قال تعالى:

لِنتفهَّم

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ آدَمَ بِٱلْحَقِّ، إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا، فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ. قَالَ: لَأَقْتُلَنَّكَ! قَالَ: إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ:

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ آدَمَ بِٱلْحَقِّ: أَي اقرأْ علَى قومِكَ، ما جاءَ في قِصةِ ابْنَيْ آدَمَ، قابيلَ وهابيلَ، وقُصَّ عليهم خبرَهُما اليقينَ، الذي لا رَيْبَ فيهِ، ولا مُبالغةَ ولا كذِبَ. والخطابُ هُنا موجَّهٌ إِلى النبِيءِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم.

ٱلْقُرْبَان: هو كلُّ مَا يُتقَرَّبُ بهِ إِلى اللهِ من الذَّبائِحِ وغيرِها.

وَالمعنَى: قُصَّ يا محمدُ على قومِكَ خبرَ ابْنَيْ آدمَ، قابيلَ وهابيلَ، اللذيْنِ قدَّما بإِشارةٍ من أَبيهما آدمَ، قُرْبانًا للهِ، فتقبَّلَ اللهُ قُربانَ هابيلَ، ولَمْ يَتقبَّلْ قُرْبانَ قابيلَ. فَاغْتاظَ هذَا الأَخيرُ، وتَملَّكَهُ الحَسَدُ،

وجاشَتْ نفسُه غَيْرةً، وآشتدَّتْ نَقمتُه على أَخيهِ، وقالَ له : لَأقتلنَّك! فرَدَّ عليه أخوهُ بأنْ لا ذَنْبَ لِي فِي ذلِك، وأنَّ اللهَ لا يتقبَّلُ إلاَّ من المتَّقِينَ! فعليْكَ بإصلاحِ نفسِك، كيْ يتقبَّلَ اللهُ منْكَ، مثلَما تقبَّلَ مِنّي.

لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي، مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ. إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ:

لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ : أيْ لئِنْ مدَدْتَها لِتعتَدِيَ بها عليَّ.

إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ: أي إنِّي أتوسَّلُ إليكَ أنْ تعدِلَ عمَّا عزَمتَ عليهِ منْ قَتْلِي حتَّى لا تبُوءَ، وتثْقلَ كاهِلَك بإثمَيْنِ: إثمِ قَتْلِي، وإثْمِكَ الأوَّلِ الذِي تسبَّبَ لكَ فِي رَفْضِ قُرْبَانِكَ.

فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ : أيْ وإلاَّ كنتَ منَ الأشقِياءِ، وأَصْحابِ النارِ، وذَلِك جزاءُ الظَّالِمينَ.

والمعنَى : يَا أخِي قابيلُ، لئِنْ حدَّثتْكَ نفْسُكَ بِقَتْلِي، فمَا أنا بالذِي يمُدُّ يدَه لِيقتُلَ بها أخاهُ، لِأنِّي أخافُ اللهَ ربَّ العالمينَ. يَا أخِي إنِّي أتوسَّلُ إليكَ أنِ ترْجِعَ عمَّا عزمتَ عليهِ، حتى لا تُضيفَ إثْما جديدًا إلى إثمِكَ السَّابقِ الذي تسبَّبَ لكَ في رَفضِ قربانِك من اللهِ عزَّ وجلَّ، وإلاَّ كنتَ مِنْ أصحابِ النارِ، ونِلْتَ الجَزاءَ الذي ينالُه كلُّ ظالِمٍ.

فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ:

فطوَّعتْ لهُ نفسُه : أيْ شجَّعتْه، وزيَّنتْ لهُ آرْتِكابَ جَريمةِ القَتلِ، وبالرَّغْمِ عمَّا سبَقَ منْ توسُّلِ أخيهِ إليهِ، وتَحذِيرِهِ إيَّاهُ سوءَ العاقِبةِ.

فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ : أي بذلِك، فقَدَ راحةَ البالِ، وتَملَّكهُ الندَمُ، وآستولَى عليهِ الإضطرابُ، والهَلَعُ، وخَسِرَ سعادَةَ الدنيا والآخِرةِ!

والمعنَى : إلاَّ أنَّ قابيلَ لَمْ يَستمِعْ إلى توسُّلاتِ أخيهِ، وتحْذيرِه

إِيَّاهُ سوءَ المصيرِ ، فزيَّنتْ لهُ نفسُهُ الخَبيثةُ ٱرتِكابَ الجَريمةِ، فقَتَلهُ. وبذلِكَ أَصْبحَ منَ الخَاسِرينَ، ولَم يدْرِ كيفَ يُخفِي جُثةَ أَخِيهِ.

فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ. قَالَ : يَا وَيْلَتَا ! أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ.

يُوَارِي : منْ وَارىَ الشيْءَ بمعنى أخفاهُ.

سَوْءَةَ أَخِيهِ : السوْءَة لغةً هِيَ العوْرَة. والمقصودُ بِها هُنا جُثَّةَ هابيلَ المقتـولِ.

يَا وَيْلَتَا : أَيْ يَا فَضِيحَتِي

فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ : أَي ٱضطرَبَتْ نفْسُهُ، وٱنْتَابَهُ وَخْزُ الضميرِ ، وَٱستوْلَى عليهِ التَّحسُّرُ علَى ما فَعلَ، ونَدِم علىَ ذلِك، ولكِنْ هَيهاتَ أَنْ ينفعَ الندمُ.

وَالمَعنَى : عنْدَما ٱحتارَ قابيلُ وعجَزَ عن إِخفاءِ جثةِ أَخيهِ المقتـولِ، بعَثَ اللهُ غُراباً يَبْحثُ فِي الأَرْضِ مُنَقِّباً علَى مَكانٍ فيهَا.فحفَرَ حُفرةً، وَرَآهُ قابيلُ ففعَلَ مثْلَه، ودفَنَ جُثةَ أَخِيهِ تحتَ الترابِ. إِلاَّ أنَّ ذلِكَ لم يُنْجِهِ مِنْ وَخِزِ الضَّميرِ فَتَملَّكَهُ التَّحسُّرُ، وَٱستوْلَى عليهِ ٱلهَمُّ وَالغمُّ، وتَاهَ فِي الجِبالِ والصَّحَارِي إِلَى أَنْ أَدرَكَه الموْتُ .

ومُجمَل المَعنى

ٱقرأْ يَا مُحمدُ على قومِك، نبأَ ٱبْنَيْ آدمَ قابيلَ وهابيلَ ، وقُصَّ عليهم ما وَقَعَ بَيْنَهُما من خِصامٍ أَدَّى بِقابِيلَ إِلى قتْلِ أَخيهِ هابيلَ بِدافِعِ الغَيْرَةِ والحَسَدِ، وكيْفَ أَنَّ قابيلَ ٱحتارَ في إِخفاءِ معالِمِ جرَيمَتِهِ، فَبعثَ اللهُ غُراباً هدَاهُ إِلى طَريقَةِ دفْنِ جُثةِ أَخيهِ تَحتَ الترابِ ، وكَيْفَ أنَّ ذلِكَ لم يُنْجِهِ من الندمِ، وتأنيبِ الضميرِ ، فتاهَ بيْنَ الجبالِ والصَّحارِي إِلى أَنْ هَلَكَ.

وكأنّ اللهَ عزّ وجلّ أرادَ مِنْ خِلالِ هذهِ القصةِ، حَمْلَ نَبيّهِ على إقناعِ ذَوِي دَعْوتِهِ من المصدِّقينَ بهِ، بأنّ ما صدَر عنِ اليهودِ من إذايَةٍ له، هوَ مِنْ طبيعةِ النفسِ البشريّةِ الأمّارةِ بالسّوءِ، بدليلِ ما وقعَ من شرٍّ بين هذَيْنِ الأخوَيْنِ مِنْ بَطْنٍ واحِدٍ.

في حقل التربية

(مطالعات)

لِنتأمّل

يُروى أن رَجلاً كان يقِفُ كلَّ يومٍ عندَ مِلكٍ منَ الملوكِ، ويقولُ له :

«أحسِنْ إلى المحسِن، أما المسِيءُ فستكْفيكَهُ مَساعيهِ.» وكانَ الملكُ يُحسِنُ إليهِ. فغارَ منهُ أحَدُ أصْحابِه، وحَسدَه على هَذِه الحُظْوَة، ووَشَى بهِ لَدَى الملِك. فاغْتاظَ الملكُ، وعزَم على قَتْلِه. فكتَبَ بِخَطِّ يدِهِ إلى عامِلِه : «إذا وصلَك كتابي هذا، فاذبحْ حامِلَه، وابعثْ إليَّ برأْسِه». ثمّ دَفَع الكتابَ إلى النّاصِح ، فأخذَهُ وخرَجَ. فقابلَهُ صاحبُه، وقال له : «ما هَذا ؟» قالَ : كتابُ بِخَطِّ الملِكِ إلى عامِلِه. فظَنّ الحاسِدُ أنّ بهِ توصِيَةً، فقالَ لَه : هَبْهُ لي فإنّي واللهِ مُحتاجٌ. فدَفعه الناصِحُ إليهِ شَفقَةً ورَحْمَةً بِهِ. فأخذَه ومضَى الى العامِلِ، فنفَّذَ فيهِ أمْرَ المِلكِ. وعلَى الباغِي تَدورُ الدّوائِرُ.

لِنُعلِّق

في خاتِمةِ هذِه القِصّةِ مثَلٌ مشهورٌ. وهوَ القائِلُ : «علَى البَاغِي تدُورُ الدوائِرُ» ولَعلّكَ قد انتبهْتَ إليهِ، ووَقفْتَ علَى ما فيهِ منْ عِبْرَةٍ. وفي الواقِعِ، فالحسَدُ كثيرًا ما تكونُ عاقِبَتُهُ وبالاً علَى صاحبِهِ، إذْ هوَ يدْفعُ بِهِ إلى الظُلْمِ، والبَغْيِ.

ولَكَ مِثالٌ على ذَلِكَ فيمَا آلَ إليهِ أمرُ هذَا الحاسِدِ، إذْ هُوَ بيّتَ لِصاحِبِه الشّرّ. فَوشَى بِهِ إلى المَلِكِ، قَصْدَ القَضاءِ علَيْهِ، والفَوزِ بِمكانَتِه. فعادَتْ عليه مَساعِيهِ بالهَلاكِ، وهُوَ نفسُ المصيرِ الذِي آلَ إليهِ قابِيلُ

- قصَّة قوم نوح والطّوفان -

لَمّا دعَا نوحٌ قوْمَهُ إلى عِبادةِ اللهِ دونَ الاصنامِ، آمَنَ بِهِ قليلٌ منْهُمْ، وكفَرَ بِهِ الباقُونَ، ورَمَوْهُ بِالجُنونِ. وعنْدَما جاهَدَهم، وَيئِسَ من إقْناعِهم وعَدَه اللهُ بإغراقِ الكُفَّارِ في مياهِ الطوفانِ، وأمرَه بِصُنْعِ سَفينةٍ عَظيمةٍ، يَنْجُو فِيهَا منَ الغَرَقِ هو، وأَهلُه، والمؤْمِنونَ به. فأَخذَ يَصنَعُها غَيْرَ مُهْتَمٍّ بِسُخْرِيَّةِ قَوْمِهِ منْ عَمَلِهِ. حتىَّ حانَ وقتُ الإِشارَةِ التي بَينَهُ وبيْنَ اللهِ، لإِعْلامِهِ بالخَطَرِ، وهْيَ فَوَرانُ التَّنُّورِ. فحَمَلَ فِيها منْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنيْنِ، وَرَكِب هوَ، وأَهلُه، والمؤْمِنُونَ بِهِ، في هاتِهِ السفينَةِ، وأَقفَلَ أبْوابَها، ونَوافِذَها، في وَقْتٍ غمَرَتْ فيهِ مياهُ الأَمطارِ، وعيونُ الماءِ الفوَّارةُ، الديارَ، والبيوتَ. وإذذاك هرَبَ الكفارُ، ولاذُوا بِالجِبالِ. لكنَّ مِياهَ الطوفانِ غمَرتْ كلَّ ما علَى الارضِ، وماتَ الجميعُ مُغْرَقِينَ. أَمَا سَفِينةُ نوحٍ، فقَدْ نجتْ بِمَنْ عليها منْ هَذِهِ الكارِثةِ. قال تعالى في ذلك :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿32﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿33﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ

تُرْجَعُونَ (34) أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ
فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (35) وَأُوحِيَ
إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا
تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36) وَاصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا
وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم
مُّغْرَقُونَ (37) وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن
قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ
كَمَا تَسْخَرُونَ (38) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ
عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (39) حَتَّىٰ
إِذَا جَا أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن
كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ
ٱلْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (40) وَقَالَ
ٱرْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ ٱللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي
لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (41) .

لنتفهم

قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا، فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا، فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ.

قَالُوا : المقصودُ بِهِم هُنا، كُفَّارُ قومِ نوحٍ.

نُوح : هوَ أَوَّلُ رَسولٍ أَرْسلَه اللهُ علَى وجْهِ الأَرضِ.

قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا : أَي خَاصَمْتَنا وحاجَجْتَنا، ولم تتْرُكْ لنا حُجَّةً إِلاَّ أَبْطَلْتَها، حتَّى سَئِمْنا ومَلَلْنا.

فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ : أَيْ هَاتِ ما تهدِّدُنا بِهِ من الوَعيدِ والعذابِ، إِن كنتَ صادقًا في أَقْوالِكَ.

وَالمعنَى : يَا نوحُ، إِنكَ قد بَالغتَ في مُجادَلتِنا، وأَكثَرْتَ، مُضايَقتَنا، وتفنَّنْتَ في إِبطالِ حُجَجِنا حتَّى سَئِمنا ومَلَلْنا. فهَاتِ ما تَعِدُنا بهِ من عذابٍ، إِن كنتَ حقًّا صادِقًا فِيمَا تَدَّعِيهِ. وفِي هَذا تحَدٍّ صَرِيحٌ لنوحٍ مِنْ كفَّارِ قومِه.

قَالَ : إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ.

إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ : أَيْ إِنَّ العذابَ الذِي وعدْتُكُمْ بِهِ، أَمْرُهُ بيدِ اللهِ لَا بِيَدِي. فإِنْ شَاءَ أَنزَلَهُ بِكُمْ، وَإِنْ شاءَ أَجَّلَهُ.

وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ : أَي علَى أَنكُمْ لَسْتُمْ بِمُعْجِزِيهِ إِنْ هُوَ أَرادَ إِنْزَالَ العذابِ بِكُمْ إِذْ أَنتُمْ فِي قَبْضَتِهِ، وتَحْتَ سُلْطَانِه.

يُغْوِيكُمْ : أَيْ يُوقِعُكم في الشَّرِّ

وَالمَعْنَى : إِنَّ هذا العذابَ الذِي وعدْتكم بِهِ إِنَّما أَمرُه إِلى اللَّهِ إِن

شاءَ سلّطه عليكمْ وإنْ شاءَ أَمْهلَكم. ولاَ يَذهَبَنَّ بكمُ الظَّنُّ إلَى أَنَّكم مُعْجِزُوه أَوْ مُفلِتُونَ مِنْ قَبْضتِهِ. ثمَّ حتَّى ولَوْ أرَدتُّ نُصْحَكم مِنْ جَديدٍ، وهِدايَتِكم إلى سَواءِ السبيلِ، لَمَا نَفعَكم ذَلِكَ، إنْ تعلَّقَتْ مَشيئَةُ اللهِ بِهلاَكِكُمْ إذْ هوَ خَالقُكم، ومَالِكُ أَمْركُم، وإليْهِ ترْجعُون.

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ:

ٱفْتَرَاهُ : أي ٱخْتلَقَه، وتَعمَّدَ الكَذِبَ فيهِ، وَالمقصودُ بِهِ هُنَا العذابُ الذي وَعَدَ بهِ نوحٌ قَوْمَه.

إِجْرَامِي : الإِجْرامُ هوَ الإِثْمُ والذنبُ.

وَالمعنَى : وَإذَا زادَ الكفارُ فِي عِنادِهم، ونَسبُوا إِليكَ الكذِبَ عَليْهِم، بِاخْتِلاقِكَ وعْدَهم بِالعَذابِ الدنيَوِيِّ، فَأجِبْهُم بِأَنِّي إِنْ ٱختلقْتُهُ، وكذبْتُ علَيْكم، فعلَيَّ إِثْمُ كذِبِي، وأنا بَرِيءٌ مِمَّا ترْتَكِبونَ مِنْ خطايَا، و ذُنوبٍ.

وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ

وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ : أي أَلْهمَهُ اللهُ بِواسِطَةِ الوَحْيِ وبَصَّرهُ بِما يُريدُ مِنْهُ فِعله، ووَجَّهَه إِليْهِ.

فَلاَ تَبْتئِسْ : أي فلا تحْزَنْ.

الفُلْك: هوَ السَّفينَة.

بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا : أي بِرِعَايتِنا وتَوْجِيهِنا.

وَلاَ تُخاطِبْنِي فِي الذِينَ ظَلَمُوا: أي لاَ تُراجِعْنِي، ولاَ تَسْتَعْطِفْنِي فِي حَقِّ ٱلذِينَ كفرُوا وكذبُوكَ، ولَمْ يَسْتَمِعوا إِلَى نُصْحِكَ لَهُم.

مُغْرَقُونَ : أي مَيِّتُونَ غَرقًا بِماءِ الطوفانِ المنتَظَرِ.

وَالمعنَى. وهُنا أَوْحَى اللهُ إِلَى نوحٍ عليهِ السلامُ، أَنْ كُفَّ عن مُواصَلةِ السَّعْي فِي إِقْناعِ مَنْ كفَرَ بِكَ، إِذْ لَا طَائِلَ لَكَ مِنْ وَراءِ ذَلِكَ، وَأَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ بِكَ مِنْ قومِكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ أَنْ آمَنَ بِكَ بالفِعْلِ، ولا تحزَنْ لِموقِفِ مَنْ خالَفَكَ، واصْنَعْ بِرِعَايَتِنا وتَوْجِيهِنا سَفينَةً تُنْجِيكَ وقوْمَكَ الذينَ آمنُوا بِكَ، مِنَ الغرَقِ، وَأَعِرِضْ عنْ مَصِيرِ مَنْ حَقَّ عليهِمُ العذابُ، ولا تَطْلُبْ مِنِّي شَفاعَةً لهُمْ، ولَا تأْخُذْكَ بِهِمْ رَأفَةٌ أَوْ رَحْمَةٌ، إِذْ قَدْ قَضَيْنَا عليْهِم بالإِغْراقِ في مَاءِ الطوفانِ المُنتَظَرِ.

وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ:

مَلَأٌ: المَلأُ هو الجمْعُ من الناسِ. والمقصودُ بِهِمْ هُنا أَشْرافُ قَوْمِ نُوحٍ.

سَخِرُوا مِنْهُ: أي اسْتَهْزَأُوا بهِ، وضحِكوا منه.

يُخْزِيهِ: أيْ يُذلُّهُ، ويُوقِعُهُ في الإِهانَةِ.

عَذَابٌ مُقِيمٌ: أي عذابٌ دائمٌ لا يَنْقَطِعُ.

وَالمعنَى: وَبِالفِعْلِ، أَقْبَلَ نوحٌ على صُنْعِ السفينةِ التي أَشارَ اللهُ عليهِ بِصُنْعِها. إِلَّا أنهُ لمْ يَسلَمْ منْ سُخْرِيَّةِ قَوْمِهِ إِذْ كلَّمَا مرَّ عليْهِ جمْعٌ منهمْ هَزِئُوا بهِ و ضحِكوا عَليْهِ، ظنًّا مِنْهُم أنهُ مجْنُونٌ يُضيعُ وقْتَهُ فِيمَا لا يُفيدُ. فكَانَ يُقابِلُهم سُخْريةً بِسُخْرِيَّةٍ، متَوَعِّدًا إِيَّاهُم بِعقابٍ يُذلُّهم، ويُخْزِيهِم فِي الدنيا، وَبِعذابٍ يُلازِمُهم إِلَى الأَبدِ فِي الآخرَة.

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا: أَيْ حَانَتْ وحلَّتْ ساعةُ الانتقامِ منَ الكفَّارِ.

وَفَارَ التَّنُّورُ: التنورُ لغةً هو المَكانُ الذِي ينضجُ فِيهِ الخُبْزُ. وفارَ التنورُ أي نَبعَ المَاءُ، وظهَرَ مِنْهُ، وهِيَ عِلامةٌ بيْنَ اللهِ وبَيْنَ نوحٍ علَى حُلولِ موْعِدِ العَذابِ المتمثِّلِ في الطُّوفانِ الموْعُودِ بهِ.

زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ: أَيِ ذَكَرًا وأُنثَى مِنْ كُلِّ نَوْعٍ من أنواعِ الحَيوانِ.

وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ القَوْلُ: أيْ واحمِلْ كذلِك عائِلَتكَ بِاسْتِثْناءِ زَوْجَتِكَ وَابْنِكَ إِذ حَقَّ عليْهِما العَذابُ لِتمادِيهِما فِي الكُفْرِ بِكَ.

وَمَنْ آمَنَ: أي واحْمِلْ أيضًا جَميعَ أنصَارِكَ الذينَ صَدَّقُوكَ، وآمَنُوا بِكَ.

وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ: أيْ على أنَّ عدَدَ هؤلاءِ المؤمِنينَ قليلٌ وليس بكثيرٍ.

وَالمعنَى: ولَمَّا دقَّتْ ساعَةُ العذابِ، وظهَرتِ العَلامَةُ التِي بيْنَ نوحٍ وربِّهِ المتمَثِّلَةِ فِي فَوَرَانِ التَّنُّورِ، أَوْحَى اللهُ إِليهِ أَنْ يَحمِلَ فِي السفينةِ زَوْجيْنِ اثْنَيْنِ ذكَرًا وأُنثَى مِنْ كُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الحيوانِ، لِضَمانِ بَقائِها على وَجْهِ الارضِ بَعْدَ الطوفانِ، وأَنْ يحْمِلَ كذلِكَ أَهْلَهُ، وكلَّ مَنْ آمنَ بِهِ على قِلَّةِ عدَدِهم بِاستِثناءِ زَوْجتِهِ وابْنِهِ إِذْ حقَّ عليهِمَا العذابُ لِاسْتمرَارِهما على الكفْرِ به.

وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ:

وَقَالَ: أي نوحٌ عليه السلامَ.

مَجْرَاهَا ومُرْسَاهَا: مَجْرَاها أي تَسْيِيرُها والمقصودُ بِهَا هُنا السَّفِينَةُ. ومُرْسَاها أيْ وُقوفُها عِنْدَ انْتِهاءِ الطوفانِ.

وَالمَعْنَى: عِنْدَما حلَّتْ ساعةُ الطوفانِ، وظَهَرتِ العَلامَةُ، وأَوْحَى اللهُ إِلَى نُوحٍ أَنْ يَحْمِلَ مَنْ سَبَقَتِ الاشارةُ إِليهِ منْ حَيوانٍ، وأَهلٍ، وأَنْصارٍ، الْتفتَ إِليهِمْ وقَالَ لهُمْ مُطَمْئِنًا مُبشِّرًا بِالنَّجاةِ، وحُسْنِ

العاقِبَةِ : ارْكَبوا فِي هذِهِ السَّفينَةِ، فإِنَّ اللّهَ هوَ الذِي سَيتولَّى إجرَاءَها وَإِرْساءَها بِرِعَايةٍ منْهُ، وهُوَ غَفورٌ لِلذُّنوبِ، رَحيمٌ بِالمؤْمِنينَ.

ومُجْمل المَعنى أَنَّ هَذِهِ القِصَّةَ تمثِّلُ مأسَاةَ نوحٍ عليهِ السلامُ معَ قومِهِ إِذْ بَالغوا فِي عِنادِهِ، وَأسْرَفوا فِي دَحْضِ رسالتِهِ وتكذيبِهِ، وتَحدَّوْهُ بِقوْلِهم : فَأْتِنا بِمَا تَعِدُنا إِنْ كنتَ منَ الصَّادِقينَ. فأَوْحَى اللّهُ إِليهِ بِألاَّ يَبْتَئِسَ، وأَمرَهُ بِصُنْعِ سَفينَةٍ تُنْجِيهِ هُوَ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ، منَ الكارِثَةِ التِي سَتَحُلُّ بِالكفارِ مِنْ قوْمِهِ، جزَاءَ عِنادِهِم، وتَطاوُلِهم عليهِ .فَصنَعَ السفينةَ وحمَلَ فِيها منْ كلِّ زوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وأَهْلَه ؛ وكلَّ مَنْ آمَنَ بِهِ ونَجا بِهِمْ جَميعًا منَ الغَرَقِ فِي الطوفانِ.

في حقل التربية

(مطالعات)

لِنتأمّل

مِنْ قصيدِ «النبيّ المجهول» لأَبي القاسِمِ الشابي :

أَيُّها الشَّعْبُ... ! لَيْتَنِي كُنْتُ حطَّا   بًا، فَأَهْوِي علَى الجُذُوعِ بِفَأْسِي !
لَيْتَنِي كُنْتُ كَالسُّيُولِ إِذَا سَا   لَتْ، تَهُدُّ القُبُورَ، رَمْسًا بِرَمْسِ !
لَيْتَنِي كُنْتُ كَالرِّيَاحِ، فَأَطْوِي   كُلَّ مَا يَخْنُقُ الزُّهُورَ بِنَحْسِ !

لِنُعَلِّق

«لَيتَنِي... لَيتَنِي... لَيتَنِي...»

هِيَ الثَّوْرَةُ كمَا تَرَى، والثَّوْرَةُ مِنْ شِيَمِ الكِرَامِ !

تَقْرَأ هذه الأبياتَ فتَسرِي فِي نَفْسِك هَزَّاتٌ، وتَوَدُّ لَوْ تَرَى هَذَا «النبيَّ المجهولَ» قَدِ انْتَقَمَ لِنفْسِهِ كما تَمنَّى أَنْ يكُونَ :

حَطَّابًا فأَهْوَى علَى الجُذوعِ اليابِسَةِ بِفأْسِهِ يَجْتَثُّهَا ويَقْتَلِعُها اقْتِلاعًا. أَوْ سَيْلًا جارِفًا فَهَدَّ القبورَ رَمْسًا بِرمْسٍ، وطَمَس معالِمَ الموْتِ مِنْ علَى وجْهِ الارضِ، أَوْ رِيحًا صَرْصَرًا عاتِيَةً، فأَبادَ كُلَّ ما يخْنُقُ الزُّهورَ. ويمْنَعُها منَ التَّفتُّحِ، ونشْرِ شَذاها. وجَمالِها على الكَوْنِ، ثمَّ وأَزالَ بِذلِكَ مَعالِمَ الموْتِ، والتَّحجُّرِ، والعِنادِ في قَوْمِهِ.

وَتِلْكَ لَعَمْرِي عَراقِيلُ صَمَّاءُ، قَلَّ أَلَّا يَصطَدِمَ بِها، أَوْ يتعرَّضَ لِشَرِّها دَاعِيَةٌ أَوْمُجدِّدٌ !

وخُذْ لَكَ أَمْثِلةً في ذلك :

- إبراهيمُ عليه السلامُ، وما لاَقاهُ مِنْ مُقاوَمةٍ أَفضَتْ بِقوْمِهِ إلى إلقائِهِ في النَّارِ.
- أَوْ مُوسَى عليهِ السلامُ، وما اسْتَهْدِفَ لَهُ مِنْ مَكائِدِ فِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ.
- أَوْ مُحمَّدًا صلواتُ اللهِ عليهِ، وما تحمَّلَهُ مِنْ أَذَى قُرَيشٍ في سَبِيلِ دَعْوتِهِ !

وهِيَ نفْسُ المأْساةِ التِي قاسَى وَيْلاتِهَا هَذا «النبيُّ المجْهولُ» عِنْدَما خَرَج لقومِهِ يَدْعُوهم إلى نَبْذِ التَّزمُّتِ، والجمُودِ والرُّكودِ. والأخْذِ بِأسْبابِ التَّجديدِ، والنهْضةِ في الحياةِ !

وهِيَ أَيضًا نفْسُ المأْساةِ التِي تجرَّعَ مَرارَتَها نوحٌ عليه السلامُ، عنْدَما باشَر قَوْمَه بدعوتِه إيَّاهُم عِبادَةَ اللهِ دونَ سِواهُ.

وَالناسُ فِي الواقعِ أَعْداءٌ لِكُلِّ جَدِيدٍ... ! سنَّةُ اللهِ في خَلْقِه. ولَنْ تجِدَ لسنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا !

وَلَكِنَّها المعجِزاتُ تُحقِّقُ بالصَّبْرِ. والمثابَرةِ. والعَزِيمَةِ التِي لاَ تُفَلُّ. وَالإرادَةُ التِي لاَ تَضْعُفُ ! !

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّالِحِينَ ﴿100﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ
حَلِيمٍ ﴿101﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي
أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ
قَالَ يَا أَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ
مِنَ ٱلصَّابِرِينَ ﴿102﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿103﴾
وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿104﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّؤْيَا إِنَّا
كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿105﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَاءُ
ٱلْمُبِينُ ﴿106﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿107﴾ وَتَرَكْنَا
عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿108﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿109﴾ كَذَٰلِكَ
نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿110﴾

قصة إبراهيم وابنه الذبيح

تزوّج سيدُنا إبراهيمُ عليهِ السلامُ بابنةِ عمّهِ «سارّة» فلمْ تُنجِبْ لهُ أولادًا. ولما تزوّج «بهاجر» زوجتِهِ الثّانيةِ، طلبَ منَ اللهِ أنْ يرْزُقَهُ ولَدًا صالِحًا، فولَدتْ لـه ابنًا سمّاهُ إسْماعيلَ. وعندما بُشِّرَ بهِ، نذَرَ أنْ يُقدِّمَه قُرْبانًا، وذَبيحًا للهِ. ولمّا كبِرَ الغلامُ، أرادَ اللهُ أن يختبِر صِدْقَ وفائِهِ لِنَذْرِه، فأراهُ في منامِهِ أنّهُ يذْبحُ ابْنَه. وعندما أفاقَ، أعلَمَ إسْماعيلَ برؤْياهُ، فلَمْ يجِدْ منْهُ إلاّ الطاعةَ والامتِثالَ. فقادَهُ إلى إحدى شِعابِ الجِبالِ، وهُناكَ طرَحَهُ علَى الارضِ، ووَضَعَ السِّكّينَ على قَفاهُ فانْقَلَبَتْ. إذ ذاكَ نَاداهُ مُنادٍ منَ السّماءِ : يا إبراهيمُ، كُفَّ عَنْ عَمَلِك، فقَدْ صَدقَتْ عزيمَتُك وقُمْتَ بالواجِبِ عليكَ. فخُذْ هَذا الكَبْشَ واذْبَحْهُ عِوَضَه. وسَيَبْقَى موْقِفُكَ هَذا ذِكْرًا بعْدَك تَتناقلُه البَشرِيّةُ جيلاً بعْدَ جيلٍ. قال تعالى في ذلك :

لِنَتفهَّم

رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ : رَبِّ مُنادَى حُذِفَ منْهُ حرْفُ النِّداءِ، أصْله يَا رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ أي ارْزُقْني وَلَدًا صَالِحًا بارًّا.

وَالمَعْنَى : يا رَبِّ إنِّي أتوَسَّلُ إلَيْكَ أنْ تَرزُقَنِي وَلَدًا صَالِحًا بَارًّا يُؤْنِسُنِي فِي شَيْخُوخَتِي وَيُعِينُنِي عَلَى تَحمُّلِ مَشاقِّ الْحَيَاةِ. وَهُوَ دُعاءٌ مِنْ سيدِنا إبراهيمَ إلى اللهِ تعالى.

فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ :

غُلاَمٌ حَلِيمٌ : الغلامُ هوَ الولَدُ الذكرُ. وحَلِيم أي حسَنُ الصِّفاتِ كريمُ الخُلُقِ.

وَالمعنَى : اسْتجَابَ اللهُ لِدُعاءِ إبرَاهيمَ عليهِ السلامُ، وبشَّرَهُ بِغُلامٍ حَليمٍ، كَرِيمِ الخُلُقِ، سَمَّاهُ إسماعيلَ، وحقَّقَ لَهُ بذَلِكَ مطْلَبَهُ وأُمْنِيَّتَهُ.

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ، قَالَ : يَا بُنَيَّ إنِّيَ أرَى فِي الْمَنَامِ أنِّيَ أذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ؟ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيَ إنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ:

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ : أي لما كبِرَ إسماعيلُ واشتدَّ عودُه، وأصْبح قادِرًا علَى السَّعْيِ والكَسْبِ معَ أبيه.

فَانظُرْ مَاذَا تَرَى : أَي قُلْ لِي ما هُوَ رأيُكَ فِيمَا أخبرْتُكَ بِه.
الصَّابِرِينَ : أي الرَّاضِينَ بِحكمِ اللهِ ، والمُمْتثِلينَ لِأمْرِهِ.
وَالمعنَى : عندَما بلَغ الولَدُ سِنَّ الرشْدِ، وصارَ قادِرًا علَى أنْ يَعْمَلَ مِعَ أبيهِ، رأَى سيدُنا إِبراهيمُ فِي مَنامِه أنهُ يذْبَحُه، فأفاقَ مِنْ نوْمِهِ وأَوّلَ رُؤْياهُ علَى الذبْحِ الحقيقِيِّ ، لِأنَّ رؤْيَا الأنْبياءِ تُعتَبَرُ وحْيًا منَ السَّماءِ. وعَرَضَ الأمْرَ على ٱبنِهِ العزيزِ علَيْهِ، الذِي رُزِقَهُ بعْدَ أنْ طعَنَ فِي السِّنِّ. فمَا كانَ مِنْ هذا الابنِ الصالِحِ البارِّ إلاَّ أَنِ ٱمْتَثَلَ لِأمْرِ اللهِ، ورَضِيَ بِحُكْمِه.

فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ :
فَلَمَّا أَسْلَمَا : أي ٱسْتَسْلم الاثْنانِ: الأبُ والابنُ ، إِلى حُكمِ اللَّهِ ورَضِيَا به.
وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ : أيْ كَبَّهُ على وجْهِه حتَّى لامَس جَبينُه الأرْضَ استِعْدادًا لِذَبْحِه.

قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا الرؤْيا هيَ ما يَراهُ النائِمُ فِي مَنامِهِ، وجَمْعُها رؤًى. وصَدَّقْتَ الرؤيَا أي ٱعْتبرْتَ الرؤْيَا حَقيقَةً وشرَعْتَ فِي تَنفِيذِها بِصِدْقٍ وإِخْلاصٍ.

وَالمعنَى : لَما ٱستسلَم إبراهيمُ وٱبنُهُ لِأَمْرِ اللَّهِ ، ورَضِيَا بِحكمِه، شرَعَ الأَبُ فِي تَنْفيذِ مَا أَمَرَ بِهِ، فكبَّ ٱبنَه علَى وجْهِهِ، وَاستعدَّ لِذَبْحِه، وَإِذ ذَاكَ نَاداهُ مُنادٍ منَ السَّماءِ أنْ كَفَى كَفَى يَا إِبراهيمُ، ٱرفَعْ يَدَكَ ولا تذْبَح ٱبنَكَ، فقد ٱختبَرْنَا صِدْقَ عزْمِكَ، وتَحقَّقْنا مِنْ إِخْلاصِكَ وهَا نحْنُ أولاءِ نجازِيكَ علَى إِحسانِكَ إِلينا، بِالطاعَةِ والامتِثالِ، بِحِفْظِ حياةِ ولدِك لَكَ.

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ :

ٱلْبَلَاءُ المُبِينُ : أيَ الامتِحانُ الأكبرُ المتمثِّلُ فِي إقدامِ إبراهيمَ على ذبحِ ابنِه إسماعيلَ.

وَالمعنَى : حقًّا إنَّ ما اختبرَ بِهِ إبراهيمُ لَهُوَ لَعَمرِي أعظمُ، وأشدُّ اختبارٍ يُبلَى ويُمتَحَن به الأبُ في ابنِهِ.

وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ :

فَدَيْنَاهُ : مِن فدَى يفدِي فِداءً. والفِداءُ فِي اللغةِ هو تخليصُ الأسيرِ مِنَ الأسْرِ مُقابلَ مالٍ أو غيرِ ذلِكَ. وفديناهُ هُنا بمعنَى عوَّضْناهُ وَأبْدَلْناهُ.

بِذِبْحٍ : الذِّبْحُ لغةً هوَ كلُّ ما يُذْبَحُ مِنَ الحيَوانِ. والمقصودُ بِالذِّبْحِ العظيمِ هو الكبْشُ السَّمينُ الذِي عُوِّضَ بِهِ إسماعيلُ.

وَالمعنَى : لَما بَانَ صِدْقُ عزْمِ سيدِنا إبراهيمَ علَى ذبحِ ابنِهِ امتِثالاً لِمَا رَآهُ فِي منامِهِ، حفَّتِ العِنايةُ الإلهيَّةُ بإسماعيلَ فَفَداهُ ربُّهُ بكبْشٍ سَمينٍ، أقرَنَ ألْيانَ، وبِذلِكَ نَجا مِنَ الذَّبحِ.

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ، سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ! كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ :

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ : أيْ أبقَيْنا لَهُ ذِكْرًا حسَنًا ترَدِّدُه الأجْيالُ مِنْ بَعدِهِ جِيلاً بعْدَ جِيلٍ. والمقصودُ فِي هذا المَقامِ هوَ سيدُنا إبراهيمُ عليه السلامُ.

كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ : أيْ بِمِثْلِ هذا الجزاءِ الذِي جازَيْنا به إبراهيمَ نجْزِي المحسنينَ مِنْ أمثالِهِ.

وَالمعنَى : جزاءً لابراهيمَ على ما أبْداهُ منْ صِدْقِ العَزيمَةِ علَى تنفيذِ ما أمِرَ بِهِ، ومُكافأةً لهُ علَى ما أظهرَهُ مِنْ شجَاعةٍ فِي الإقدامِ على التَّضْحِيَةِ بِوَحيدِهِ، فقَدْ أنعمَ اللهُ علَيهِ بأنْ خلَّدَ ذِكْرَه مَقرُونًا بِالثَّناءِ علَيهِ، ترَدِّدهُ الأجيالُ مِنْ بعدِهِ جِيلاً بعدَ جِيلٍ. وبِمِثْلِ هذا يَجزِي اللهُ المحسِنينَ أمثالَه.

ومُجمل المعنى

أَنَّ سيدَنا إِبراهيمَ الخليلَ عليهِ السلامُ، لَمَّا طعَنَ فِي السِّنِّ، ولَمْ يُنجِبْ أَوْلادا، دعَا ربَّهُ تعالَى أنْ يَرْزُقَه ولَدًا صالِحًا بارًّا. فَاسْتجَابَ اللهُ لِدُعائِهِ ووَهَبه ابنًا ذكَرًا سمَّاهُ إِسماعيلَ. ولَمَّا كبِرَ وبلَغَ مبْلَغَ الرِّجالِ، رأى أبوهُ في المَنامِ أنهُ يذبحهُ، فأخبرَهُ بِهذهِ الرؤيَا، وشاوَرهُ في أمرِها. فقَالَ إِسْماعيلُ: يَا أَبتِ افعَلْ ما تؤْمَر، سَتجدنِي إِن شاءَ اللهُ مِنَ الصابرينَ. وأسلَمَ نفْسَهُ للذَّبحِ. وعنْدَها نادَى مُنادٍ منَ السَّماءِ أَنْ يَا إِبْراهِيمُ، قدْ صَدَّقتَ الرؤيَا، وتأكَّدْنا صِدْقَ عزْمِكَ علَى تنفيذِ ما أُمِرْتَ بهِ. فكُفَّ، وارْفَعْ يدَكَ عنِ ابنِكَ، وخُذْ هَذا الكبشَ واذْبَحْهُ فِداءً، وعِوَضًا عنْهُ.

في حقل التربية
(مطالعات)

لِنتأمّل

جاءَ في سيَرِ عظماءِ المسلمينَ:

بَيْنَما كانَ خالدُ بنُ الوليدِ يقودُ جيوشَ المسلمينَ المظفَّرةَ في فَتحِ الشامِ، إذْ جاءَ البريدُ منَ المدينةِ إلى الأميرِ عُبيْدَةَ بنِ الجراحِ ينعَى أبابكرٍ، ويُخبِرُ باستخْلافِ عمرَ بنِ الخطابِ، ومعَهُ أمرٌ بعزلِ خالدٍ من القِيادةِ، وَإِسنادِ إِمارةِ الجيشِ العامةِ إلى عُبيْدَةَ. فكتَمَ الأمرَ عنْ خالدٍ ريثَما يتمُّ النصرُ للمسلمينَ، ثمّ أعلَمَهُ بأمرِ العزْلِ، فما كانَ منْ خالدِ بنِ الوليدِ إلاَّ أنْ أظهَرَ الطاعةَ والامْتِثالَ، وتقبَّلَ العزْلَ بِرباطةِ جأشٍ، حتّى لا تقعَ فِتنةٌ بينَ المسلمينَ. ووَاصلَ الجِهادَ كجُنْديٍّ بَسيطٍ تحتَ قِيادةِ عُبيدةَ ابنِ الجرَّاحِ.

لِنُعَلِّق

خالدُ بنُ الوليدِ قائدٌ بطلٌ يُدرِكُهُ العزلُ وهوَ في أَوْجِ مَجْدِه فيَمْتثِلُ، ويُطيعُ اجْتِنابًا للفِتْنَةِ في صفوفِ الجيْشِ، وحِفاظًا على وَحْدةِ المسلمينَ. ثمّ لا تَثْنِيه عزَّةُ نفسِه عَنْ أنْ يُصبحَ جُنديًّا بَسيطًا، يعْملُ تحتَ إِمْرةِ الغيْرِ، ويأْتمِرُ بأوامرِه، فيُواصِلُ الجِهادَ بنفْسِ الرّوحِ التي قادَ بها الجيُوشَ، وحقَّقَ بهَا الفتْحَ والنّصرَ لدينِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

وإبراهيمُ الخليلُ يُرْزَقُ ولَدًا بعدَ أنْ بلَغَ منَ العمرِ عُتِيًّا، وكادَ يُدرِكُه اليأْسُ. فيَرَى في مَنامِه أنَّهُ يذْبحُه، فيَمْتثِلُ ويُطيعُ أمْرَ اللهِ، ويأْخذُ في تنفيذِ عمليّةِ الذبحِ بصِدْقٍ وإِخْلاصٍ، وتَكادُ المأْساةُ تقعُ، لولاَ أنَّ اللهَ تعالَى تداركَهُ برحْمَتِه. ففَدَى إسماعيلَ بذِبْحٍ عَظيمٍ. وَإسماعيلُ يبلُغ سِنَّ الشبابِ. وتتفتّحُ في وجْهِهِ الحياةُ ويَبْتسِمُ له المسْتقْبلُ، فيُخبِرُه أبُوه بأنهُ ذابحُهُ تقرّباً إلى اللهِ عزَّ وجلَّ. فيمْتثِلُ ويُطيعُ، ويَستسْلِم للذّبْحِ في سبيلِ مَرْضاةِ أبيهِ.

تِلكَ مواقفُ ثلاثةٌ، قِوامُها الطاعةُ والامتِثالُ :

- طاعةُ خالدٍ، وامتثالُه لأمرِ الخليفةِ،
- وطاعَةُ إبراهيمَ، وامتِثالُه لأمرِ ربّه،
- وطاعَةُ إسْماعيلَ، وامْتِثالُه لأمرِ أبيهِ.

وهْيَ لعمْري مَواقِفُ إن دلّتْ علَى شيْءٍ، فعلَى مَا في خَالدِ بنِ الوليدِ مِنْ شَهامَةٍ، وعِزّةِ نفْسٍ، وعلَى ما في إبراهيمَ عليه السلامُ منْ صِدْقِ الإِيمانِ، وإِخلاصٍ في طاعةِ اللهِ. وعلَى ما في إسماعيلَ منْ زكاءٍ في النفْسِ، وإِجْلالٍ لِمقامِ الأبُوّةِ.

قصة موسى عليه السلام ولادة ورضاعا

لَمَا اَستولَى فرعونُ على الملكِ بِمصرَ، أخذَ يضطهِدُ بني إسرائيلَ، ويعذِّبهم، ويَحملُهم على عِبادَته. وذاتَ لَيلةٍ رأَى في منامِه رُؤيا أَزعجتْه، فأَوَّلَها له الكهنة بأَنَّ مَوْلودا يُولَد في بَني إسْرائيلَ يسلبُه المُلْكَ، ويُخرِجُه وَقومَه من أَرْضِه. فخافَ فرعونُ زَوالَ ملكِه، وأَمرَ بقتْلِ كُلِّ غلامٍ يُولَد فيهم. ونَفَّذَ أعوانُه أَمرَه فقَتلُوا في بِضعِ سنواتٍ، عدَدًا كثيرًا من المَواليدِ الذكورِ. وفي تلْكَ الفتْرَةِ العصيبةِ، ولَدتْ أمُّ موسَى ولَدًا ذكرًا وأَوْحَى اللهُ إلَيْها أَنْ أَرْضِعيهِ، فإذا خِفْتِ عليْهِ، فَأَلقِيهِ في اليَمِّ، ولاَ تخَافي، ولا تَحْزَني، إِنّا رادّوهُ إِليكِ، وجاعِلوهُ مِنَ المُرْسَلين. قال تعالى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿3﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ
أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ
وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿4﴾
وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿5﴾ وَنُمَكِّنَ
لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ
وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿6﴾
وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ

عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي
إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (7)
فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ
فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8)
وَقَالَتِ ٱمْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ
عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (9)
وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ
لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (10)
وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (11) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِنْ
قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ
لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (12) فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ
كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ
حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (13) .

لِنَتَفَهَّمْ

نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ :

مُوسَى : هوَ رسولُ اللهِ إلى بني إسرائيلَ وكِتابُه التَّوْرَاة.

فِرْعَوْنَ : هوَ لَقَبٌ عامٌّ لِملوكِ مصرَ القُدامَى. وفِرْعونُ الذي وُلِدَ مُوسى فِي عَهْدِهِ اسْمُه «مِنفتاح»

وَالمعنَى : يا محمدُ، نحْنُ نُخبِرُكَ بِواسِطةِ جبريلَ الرُّوحِ الأَمينِ، إِخْبارًا صادِقا، لاَ مُبالغةَ فيهِ، ولاَ رَيْبَ، ولا كَذِبَ، بِقصَّةِ موسَى وفرْعوْنَ عسَى أنْ يَتَّعِظَ بهاَ المؤْمِنونَ مِنْ قَوْمِكَ.

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ ، يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ ، وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ، إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ :

عَلَا فِي الْأَرْضِ : أَي طغَا وتجبَّر، وادَّعى الرُّبوبيَّةَ، وقالَ أَنا ربُّكُمُ الأَعْلَى.

وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا : أيْ فرَّقَ أهلَ مَمْلكَتِهِ، وجعلَهم كُتلاً، وأحْزابًا، مُتخاصِمةً مُتناحِرَةً، حتَّى يَكونَ جَميعُهُم خاضِعًا لَهُ، مسْتَضْعَفًا عنْدَه، وتكونُ لهُ السيادةُ المُطْلَقةُ عليْهِم.

يَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ : أَيْ يُبقِي علَى حياةِ المَواليدِ الإِناثِ منْهُم.

وَالمعنَى : اعلَمْ يَا محمدُ، أنَّ فرْعوْنَ ملِكَ مصْرَ، طغَا وتجبَّر على الخَلْقِ، وجعَلَ أعزَّةَ بَني إسرائِيلَ أذِلَّةً، وشتَّتَ صُفوفَهم، حتى أصبحوا يَعيشونَ جَماعاتٍ متفرِّقةً، وطوَائفَ مُتنافِرةً، لِيكونَ بأسُهم بَينهَم شَديدًا، وتكونَ له الغلبةُ، واليدُ الطولَى عليهِم. ومِنْ ذلِكَ أنهُ كانَ يَستَضْعِفُ مَنْ يُريدُ احتِقارَهُ، ويُقرِّبُ إليهِ منْ يُريدُ كَسْبَ مَوَدَّتِه، وقَدْ دفعهُ الخوْفُ علَى مُلْكِه، ودنياهُ، إلَى تذبيحِ المَواليدِ الذكورِ، واسْتِحْياءِ المَواليدِ الإِناثِ حتَّى لا يَتربَّى وَيترعْرعَ في مَمْلكتِهِ النَّبيءُ الذي يَخشَى زَوالَ مُلْكِهِ علَى يَدَيْهِ. وإنَّهُ بِعمَلِه هذا كانَ منَ المفسِدينَ فِي الارْضِ.

وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيِمَّةً ، وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ، وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ، وَهَامَانَ، وَجُنُودَهُمَا، مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ :

أَنْ نَمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِي ٱلْأَرْضِ : أَيْ أَنْ نُكْرِمَهُمْ وَنَرْفَعَ مِنْ شَأْنِ الذِينَ اسْتَضْعَفَهُم فِرْعَوْنُ وقَهَرَهُم وأَذَلَّهُمْ وهُمْ بَنُو إِسْرَائيلَ.

وَنَجْعَلَهُمْ أَيِمَّةً : أي نَتَّخِذ منهم الحكّامَ والوُلاةَ.

وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَارِثِينَ : لِأَرْضِ مِصرَ، وَمُلْكِ فِرْعونَ بعدَ انْقِرَاضِ سُلْطانِهِ.

وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ : أي نجعلهم أَصْحابَ العقدِ والحلِّ والنفوذِ فِيها.

هَامَان : هو وَزِيرُ فِرْعَوْنَ.

مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ : أي ماكَانُوا يَخافونَه وهوَ ظُهورُ مُوسَى، وزَوالُ مُلكِهم علَى يدَيْه.

وَالمعنَى : ورَحْمةً منَّا بهؤلاءِ المُسْتَضْعَفينَ الذينَ تَعرَّضُوا لِجبَروتِ فِرْعونَ، فقَدْ شاءَتْ إِرادَتُنا أَنْ نَتفضَّل عليهِمْ بِالتَّكريمِ ورَفْعِ المنزِلَةِ، وَأَنْ نَجعلَهم أُولِي الأَمْرِ بمصرَ، وحُكّامَها، والقابِضينَ علَى زِمامِ الأَمْرِ فِيها بعدَ زَوالِ مُلْكِ فرعونَ علَى يدِ مُوسَى. وبذَلك تَتِمُّ نَقمَتُنا مِنْ هَذا الطاغِيَةِ وبِطانَتِهِ ونُرِيهم أَنَّ ما كانُوا يَخافونَه قَدْ تحقَّقَ.

وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ ، وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ:

ٱلْيَمّ : هو البحْر. والمقصودُ بِهِ هُنا نَهرُ النِّيلِ بمصرَ.

وَالمعنَى : وَلَما ولدتْ أُمُّ موسَى، أَوْحَيْنا إِليْها أَنْ تُرْضِعَ وَليدَها، وَإِذا هِيَ خافتْ علَيْهِ مِنْ فِرْعونَ، أَنْ تُلقِيَهُ فِي نَهرِ النِّيلِ، مُؤكِّدِينَ

لَها نَجاتَه مِنَ الغرَقِ وَالهَلاكِ، وَاعِدينَ إِيَّاها بِردِّهِ إِلَيْها سَالِمًا. وَمُبَشِّرِيهَا بِأَنَّهُ سَيَكونُ مِنَ المُرْسَلِين.

فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ، وَهَامَانَ، وَجُنُودَهُمَا، كَانُوا خَاطِئِينَ:

آلُ فِرْعَوْنَ : أيْ أَهلُه وعِيالُه. وَالمقصودُ بِهِم هُنا جَوارِيهِ اللاَّتِي التَقَطْنَ تَابُوتَ مُوسَى مِنَ النَّهرِ.

لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا : أي خَصْما لَدُودًا، ومَصدَرَ تَعبٍ وشَقاءٍ لَهُم.

كَانُوا خَاطِئِينَ :أي أَخطَأُوا التقديرَ وَالحسابَ وفَشَلتْ خُطَّتُهم المتمثِّلَةُ فِي تَذبيحِ كُلِّ المَواليدِ الذكورِ، بِدليلِ ظُهورِ مُوسَى وَإِفلاتِه مِنْ قَبضَتِهِم، مَحْفوفًا بِعِنايَتِنا.

وَالمعْنَى :وَأَلقَتْ أُمُّ موسى بِولِيدِها فِي النهرِ، فالْتَقطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ، فَكانَ لهُمْ مِنْ بعدُ خَصْمًا لَدودًا، ومصدَرَ تعبٍ وشَقاءٍ. وبِذلِكَ فشَلَتْ خطَّةُ فِرعونَ وأنصَارِهِ، وبطَلَتْ كلُّ تَقدِيرَاتِهِم وحِسابَاتِهِم.

وَقالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ:

امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ : أي زَوْجَته.

قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ : أي مصدرُ سرورٍ وَارْتِياحٍ لَنا الاثنيْنِ.

وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ: أي لا يعرِفونَ مَا يُخَبِّئه لهمُ الغدُ بِسببِ هَذا الطِّفلِ.

وَالمعْنَى :وَلمَّا وقَع نظرُ آسِيَةَ زَوْجَةِ فِرْعَوْنَ علَى الولِيدِ، أَحبَّتْهُ وحنَّتَ عليهِ، وتوسَّمَتْ فيهِ الخيْرَ، وطلبَتْ مِنْ زَوْجِها أنْ يُبْقِيَ على حياتِهِ، وَألاَّ يقتُلَه، عَساهُ أنْ يكونَ لَها ولَهُ قرَّةَ عَيْنٍ، ومصدَرَ فرَحٍ وسُرورٍ، وأَنْ يَنفعَهُما، أَوْ أَنْ يتَّخِذَاه ولَدًا لَهُمَا. فَوافَقَها علَى ذَلِك فِرْعَوْنُ، ومَا دَرَى هُوَ وبِطانَتُه ما يَنْتَظِرُهم مِنْ شرٍّ بِسببِ هَذا الطِّفلِ.

وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ :

فَارِغًا : أَي خاليًا منَ المَشاغِل. إِلاَّ مِنْ ذكْرِ ٱبْنِها مُوسَى الذِي سيْطرَ على قلْبِها.

إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ : أَي إِنَّها كادَتْ تُفْشِي سِرَّهُ وتُعلِنُ أَمْرَه على الناسِ

لوْلاَ أَنْ رَبَطْنا علىَ قَلْبِها : أيْ لَوْلاَ أننا أَلهَمْناها الصَّبْرَ، وقوَّيْناها على كِتْمانِ السِّرِّ.

قُصِّيهِ : أي تَتبَّعِي أَثَرَهُ. وَٱبْحَثِي عَنْ مَكانِه ومَصيرِه.

عَنْ جُنُبٍ : أَي مِنْ مَكانٍ بعيدٍ وَدونَ أَنْ يفتَضِحَ أمرُها . ويَشعُرَ أَهلُ فِرْعونَ بِأَنَّهَا أُخْتُه.

وَالمعْنَى : وعَادتِ الأُمُّ بعدَ أَنْ أَلقتْ بِوليدِها في اليمِّ حَزينَةً حائِرةً لا يشغلُ قلْبَها إِلاَّ الحنينُ إلى ٱبْنِها. وفلْذَةِ كبِدِها. وكادَتْ تَصيحُ من الأَلَمِ وتُفْشِي سِرَّهَا لَوْلاَ أَنْ أَلهَمْناهَا الصبرَ. وقَوَّيْنَاها على كِتمانِ سِرِّها، فأمسكتْ، وتجلَّدتْ، ثمَّ أَرسلتِ ٱبنتَها مَرْيمَ، تَتَبَّعُ أَثرَ أَخِيهـا، فانطلَقَتِ ٱلبنيَّةُ تستخْبِرُ في خَوْفٍ، وحذَرٍ، فبَصُرَتْ بِأَخِيها مِنْ مَكانٍ بَعيدٍ، ووَقفَتْ علَى حَقيقَةِ خَبَرِه، دُونَ أَنْ يشْعرَ أَحدٌ بأنَّهـا أُخْتُه.

وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ :

المَرَاضِعِ : جمْعُ مُرْضِع، والمرْضِع هيَ المَرْأَةُ التِي تُرْضِعُ مولُودَها أَوْ مولُودَ غيْرِها.

يَكْفُلونَه : أي يَقُومُونَ بِلَوازِمِه وَيَتكفَّلونَ بِتَرْبِيَتِه.

وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ : أَيْ مُخلصونَ لا يُتَوَقَّعُ منهم التَّقصيرُ أَوِ الغِشُّ .

وَالمعنَى : وَأَلْهَمْنا موسَى أَ[illegible] ثَدْيَ المَرَاضِعِ اللاَّتِي جِيءَ لهُ بِهِنَّ، فعَرَضَتْ أُختُهُ مريمُ وَساطَتَهَا وقالتْ لِأَهْلِ فرعون : « هل أَدُلُّكُمْ علَى أَهلِ بيْتٍ يَكفلُونَه لكمْ وهُمْ لَهُ نا صحونَ ؟» فقَبِلوا.

فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ:

تَقَرَّ عَيْنُهَا : أي تَفرَح بِهِ.

أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ : أَيْ أنَّ وعْدَ اللهِ المتمثِّلِ في قَوْلِهِ : إِنا رَادُّوهُ إِليكِ قد تحقَّقَ بِالفِعْلِ.

وَالمعْنَى : وبِذلِكَ تحقَّقَتِ المُعْجِزةُ، وعادَ الرَّضيعُ إِلَى أُمِّهِ، وقَرَّتْ بهِ عينُها، وحلَّ بِقلْبِها السُّرورُ بعْدَ الحُزْنِ، والرَّجاءُ بعدَ اليأسِ، وَأَصبحَتْ تُرضِعُه وتُعْنَى بِشؤُونِهِ، وهيَ آمنةٌ منْ كَيْدِ الكائِدينَ، وسَعْيِ الوَاشينَ، وقدْ أَيقنَتْ أنَّ وعْدَ اللهِ حقٌّ، ولكِنَّ أكثرَ النَّاسِ لاَ يعلَمونَ.

ومُجْمل المعنى

أَنَّ موسَى عليهِ السلامُ، وُلِدَ في ظَرْفٍ قدْ طغَى فيهِ فرعونُ وتجبَّرَ، وبلَغَ بهِ الحِرْصُ على مُلكِهِ أن ذبَّحَ المَواليدَ الذكورَ منْ بَني إِسْرائيلَ إذْ هُوَ رأَى في مَنامِه مَا يُشعِرُ بِأنَّ مَوْلوداً منهُمْ سيسْلُبُه سُلطانَه. ولَمَّا وضَعتْ أمُّ موسَى حَمْلَها وكانَ وَلدًا ذكَرًا خافَتْ عليهِ وساوَرَها القَلَقُ على حياتِهِ. فأَوْحَى اللهُ إِلَيْهَا « أَنْ أَرْضِعيهِ فإِذَا خِفتِ عليهِ فأَلقيهِ في اليَمِّ وَلاَ تخافِي ولا تحزَني ، إِنَّا رادُّوه إِليكِ، وجاعِلوهُ منَ المرسلينَ » فكانَ ما أَمرَ بهِ اللهُ، وَالْتقَطَه أهْلُ فرعونَ، وجاءُوا له بِالمَرَاضِعِ فامْتنعَ من الرَّضاعِ، فدلَّتهم أُختُه على امْرَأةٍ ترْضِعُه بِنصْحٍ وإِخْلاصٍ، فَوَافقوا، وهُمْ لاَ يعْلَمُون أنَّ مَنْ أَشارتْ بِهَا هيَ أُمُّهُ. وبذا عادَ المَوْلودُ إِلى وَالدتِه، وقَرَّتْ بهِ عينُها، وتحقَّقَ وعدُ اللهِ، إِنَّ وعدَاللهِ حقٌّ

في حقل التربية
(مطالعات)

لِنتأمّل

جاءَ في قصصِ العربِ :

أَرْسَلَ قيصرُ رَسولاً إِلى عمرَ بنِ الخطابِ لِينظرَ أَحوالَه، ويُشاهدَ أَفعالَه. فلَمَّا دخَلَ المدينةَ، سأَلَ أَهْلَهَا، وقالَ : أَينَ مَلِكُكُمْ؟

فَقالُوا : ما لَنَا مَلِكٌ، بلْ لَنَا أَميرٌ قَدْ خرَجَ إِلى ظاهِرِ المدينةِ، فخرَجَ الرسولُ في طَلَبِه فرآهُ نائمًا في الشمسِ على الارضِ، فوقَ الرمْلِ الحارِّ، وقَدْ وضَعَ عصاهُ كالوسادَةِ، والعرَقُ يتصبَّبُ من جبينِهِ إِلى أَنْ بلَّ الارضَ. فلمَّا رآهُ على هذهِ الحالَةِ، وقَعَ الخشوعُ في قلبِهِ وقالَ : رجلٌ يَكونُ جميعُ الملوكِ لا يقِرُّ لهُمْ قَرارٌ مِنْ هَيْبتِهِ، وتَكونُ هذهِ حالُه ! ولكنَّكَ يا عمرُ عدَلتَ، فأَمِنْتَ، فَنِمْتَ ! ومِلكُنا يجُورُ ! فلا جرَمَ أَنَّه لا يَزالُ ساهِرًا خائفًا.

لِنُعَلّق

لقدْ رأينَا في قصَّةِ موسَى وفرعونَ كيفَ أَنَّ هذا الأَخيرَ طغَى وتجبَّر، وكيفَ أَنَّ رؤيَا رآهَا في المَنامِ، أَزْعجتْه، وأقضَّتْ مَضجِعَه، وسلَبتْه الطمأنينَةَ والراحةَ، وباتَ يخشَى زوالَ مُلكِه بسببِهَا، وكيفَ أَنَّ هذهِ الحالةَ النفسيةَ لم تزِدْهُ إِلاَّ طُغْيَانا على طغيانِه، وجبروتًا على جَبروتِه، فعاثَ في الارضِ فَسادًا، وأعْمَلَ السكينَ في المواليدِ الصغارِ. ثمَّ هذهِ قصةُ عمرَ بنِ الخطابِ، وقدْ رأيتَ ما كانَ منْ أمرِهِ. يخرُجُ وحدَه إِلى ظاهرِ المدينةِ، ولا مَنْ يَسهَرُ على سَلامَتِه، فينامُ على الارضِ، ويتوسَّدُ عصاهُ، آمِنًا، مُطمئنًّا، لا يخشَى شرًّا يأتِيهِ من قِبَلِ أَيٍّ كانَ منْ رَعيَّتِهِ.

ترَى ما السرُّ فيما رَأيتَه منْ فرعونَ، وفيما رأيتَه من عمرَ ؟

ظلَمَ الاولُ، فشَقِيَ، وفقَدَ راحةَ البالِ والضميرِ، وخافَ سوءَ المصيرِ.

وعدَلَ الثاني، فأَمِنَ، ونامَ مطمئِنَّ البالِ، مُرتاحَ الضميرِ.

قصة ولادة عيسى عليه السلام

نشأتْ مريمُ في بيتِ عفّةٍ وطهارةٍ، وكانتْ خادمةً لبيتِ المقدسِ. وذاتَ يومٍ، تصوّرَ لها جبْريلُ عليه السلامُ في هيئةِ إنسانٍ وقالَ لهَا : يَا مريمُ إنَّ اللهَ بعثَني إليكِ لِأَهبَ لكِ غلامًا زكيًّا. فحملتْ بعيسَى بإذنِ اللهِ، وكانتْ عذْراءَ لم تتزوَّجْ. ولما جاءَها المخاضُ، خافتْ من تقوّلاتِ الناسِ، فالتجأتْ إلى جذعِ نخْلةٍ، حيثُ ولدتْ تحتَها سيدَنا عيسَى عليه السلامُ. قال تعالى :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ
أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿16﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا
فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿17﴾ قَالَتْ
إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿18﴾ قَالَ
إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿19﴾ قَالَتْ
أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿20﴾
قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ
ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿21﴾ فَحَمَلَتْهُ
فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿22﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ

إِلَى جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ
نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿23﴾ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ
رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿24﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ
تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿25﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي
عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي
نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿26﴾
فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا
فَرِيًّا ﴿27﴾ يَا أُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا
كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿28﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن
كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿29﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ آتَانِيَ ٱلْكِتَابَ
وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿30﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي
بِالصَّلَاةِ وَٱلزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿31﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ
يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿32﴾ وَٱلسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ
وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿33﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ
ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿34﴾ .

لنتفهم

وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا، فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا، فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا، فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا. قَالَتْ إِنِّيَ أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا. قَالَ: إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا. قَالَتْ: أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ، وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ، وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا؟ قَالَ: كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ. وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ، وَرَحْمَةً مِنَّا، وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا.

وَٱذْكُرْ فِي الكِتَابِ مَرْيَمَ : أي ٱرْوِ خبرَ مريمَ في ٱلْقرآنِ الكريمِ، وتَحدَّثْ عنْ مُعْجزَةِ وِلادَتِها لِعيسَى عليهِ السلامُ، والخِطابُ هنا موجَّهٌ إلى النَّبِيءِ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ.

إِذِ ٱنْتَبَذَتْ : أي ٱختلَتْ بنفسِها، وٱعتزَلَتِ الناسَ.

حِجَابًا : الحجابُ لغةً هو كلُّ ما يُستَرُ بهِ عن أعْيُنِ الناسِ. والمقصودُ بهِ هُنا المكانُ الذي كانتْ مريمُ تتَّخِذُهُ خَلْوَةً لها.

رُوحَنَا : أي جبريلُ عليه السلامُ.

فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا : أي تصوَّرَ لها في هَيْئةِ إنسانٍ تامِّ الخِلقةِ.

أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ : أي أتحصَّنُ باللهِ منْكَ، وأسْتَنْجِدُ بهِ لِيحفَظَني منْ شَرِّكَ.

غُلَامًا زَكِيًّا : أي مَوْلودًا ذكَرًا، صالِحًا، شريفَ الأصلِ والنَّسبِ.

أَنَّى : بِمعنَى كيْفَ.

بَغِيًّا : البغِيُّ هيَ المرأةُ الفاسِدَةُ السِّيرَةِ.

هَيِّنٌ : أي سهْلٌ.

آيَةً لِلنَّاسِ : أي مُعْجزةً لِلْخلْقِ أجمعينَ.

أَمْرًا مَقْضِيًّا : أي مُقدَّرًا منَ اللهِ منْ قَبْلُ.

وَالمعنى قُصَّ يا محمدُ في ٱلْقرآنِ الكريمِ خبرَ مريمَ. وقِصَّةَ وِلادتِها لِعيسَى، وكيفَ أنَّهَا ٱعتادتِ الاخْتِلاءَ بِنفسِها لِتتفرَّغَ لِلعبادَةِ، وكيفَ أنَّ جِبْريلَ عليهِ السلامُ، فَاجأَها ذاتَ يوْمٍ فِي إحدَى خَلَواتِها وتصوَّرَ لَها فِي هَيئَةِ إنسانٍ تامِّ الخِلْقةِ، فَٱسْتعاذَتْ بِاللهِ منهُ، وظَنَّتْ بِهِ شَرًّا. فَطمْأنَها وقالَ لَهَا: إنَّما أنَا رَسولُ رَبِّكِ جئتُ لِأَهَبَ لكِ غلامًا زَكِيًّا. فٱسْتغربَتِ الأَمرَ وٱستبعدتْ أنْ يكونَ لها غلامٌ وهِيَ عَذراءُ لم تَتزوَّجْ بعدُ. فقالَ لَها إنَّ ما تَستغرِبينَه هو هَيِّنٌ، سهْلٌ علَى ربِّكِ، وقدْ شاءَتْ قُدرَتُه أنْ يجْعلَ مِنْ مَوْلودِكِ مُعجِزةً للخَلْقِ أجمعينَ.

فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا فَأَجَاءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا.

فَأَجَاءَهَا ٱلْمَخَاضُ: المخاضُ هوَ أَوْجاعُ الوِلادَةِ عندَ الطلقِ، وأجاءَها المخاضُ أي أَلْجأَها وٱضْطرَّها وساقَها إلى جِذْعِ النَّخلةِ.

نَسْيًا: النِّسيَ هو الشيْءُ التَّافهُ الحقيرُ الذِي لا قيمةَ لهُ،

مَنسِيًّا: المَنسيُّ هوَ المُهْمَل الذِي لا يَذكرُهُ الناسُ.

وَالمَعْنَى: وحَملتْ مريمُ بعيسى بِإِذنِ اللهِ. وعندَما قربَ موْعدُ وِلادتِها خَافتْ علَى عِرْضِها أنْ تَلوكَهُ ألسنةُ الناسِ، ففرَّتْ بِنفْسِها إلى مَكانٍ بعيدٍ عنِ الأَنظارِ، وألْجأَها المَخاضُ إلى جذعِ نخلةٍ، فولدتْ عيسَى عليه السلامُ، وكانتْ لَحْظةً رهيبةً تمنَّتْ فِيها أنْ لوْ ماتتْ قبلَ هذَا الحَادثِ، وزالَ ذِكرُ ٱسْمِها منَ الوُجودِ.

فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا. وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا، فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا:

فَنَادَاهَا: أَي صاحَ بِها. والذِي نادَاها هوَ جِبريلُ عليهِ السلامُ.

سَرِيًّا : السريّ هو النهرُ الصغيرُ. والمقصودُ بهِ هُنا نهرٌ كانَ جافًا فجرَى ماؤُه إكرامًا لِمريمَ.

هُزِّي : أي حرّكي.

رُطَبًا جَنِيًّا : الرطَب هو ما نَضِجَ منَ البُسْرِ قبلَ أنْ يَصيرَ تَمْرًا. جَنيًّا أيْ مقطوفًا مجمُوعًا لوقتِهِ.

نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا : أي أوْجبتُ علَى نفسِي أَنْ أصومَ عنِ الكلامِ وَأُمْسِكَ عنهُ تطوُّعًا مِنِّي، وتقرُّبًا إلى اللهِ.

إِنْسِيًّا : أي أيًّا كانَ منَ البشَر.

وَالمعنَى : ولَما بلَغَ الأَمْرُ بِمرْيمَ أن تمنَّتِ الموتَ فِرارًا من العارِ وتقوُّلاتِ الناسِ، بادرَ جبريلُ عليهِ السلامُ بِطمأنتِها، وناداها أَنْ يَا مريمُ لا تحزَني، ولاَ تَتألّمي، فإنَّ اللهَ قد يسَّرَ لكِ أسبابَ العيْشِ وهيَّأَ لكِ وَسائلَ الرَّاحةِ فِيمَا تجدينَه حَوْلكِ. فانْظري تحتَكِ إلى هَذا النهرِ الجافِّ، كيفَ جرَى ماؤُهُ إكرامًا لكِ، فاشْرَبي منْ مائِهِ تَجديهِ عذْبًا زُلالاً، وانظِري فوْقكِ إلى هذِهِ النخلةِ اليَابسَةِ كيفَ أثمرَتْ منْ أجْلِكِ، فحرِّكِي جِذْعَها يَتساقَطْ عليْكِ رُطَبُها جنيًّا، فكُلِي منْهُ تَجدِيهِ لذيذًا شهيًّا، وقرِّي عينًا بِمَا كرَّمكِ اللهُ بهِ وَإذا خِفتِ منْ تَقوُّلاتِ الناسِ، فقولِي إنِّي نذَرْتُ للرَّحمَنِ صَوْمًا فَلنْ أُكَلِّمَ اليوْمَ إنْسِيًّا.

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ؟

شَيْئًا فَرِيًّا : أي أمرًا منكرًا فَظيعًا.

هَارُونَ: هوَ تقِيٌّ من أتْقياءِ بَني إسرائيلَ اشتهَرَ بالعفَّةِ وحُسْنِ السِّيرَةِ. وهوَ غيرُ هارونَ أخِي مُوسَى.

أَمْرَأَ سَوْءٍ : أي رجلاً قبيحَ الفِعالِ.

وَالمعنَى : ولمَّا آطمأَنَّ بالُ مريمَ ، وفرغَتْ مِنْ نِفاسِها ، عادَتْ إلى قَوْمِها تَحمِلُ مَوْلودَها غيرَ خائفةٍ ولا مُباليةٍ بما عسَى أنْ يُقالَ فيها . فَفوجِئَ القومُ بمقدَمِها . وظنُّوا بها الظنونَ ، وآستَنْكَروا مَا توهَّمُوا أنها وقعَتْ فيهِ من إثْمٍ . وقالوا لَهَا : يَا مريمُ لقدْ جئتِ شيئًا فَرِيًّا . إنَّكِ منْ عَائلةِ مجْدٍ ، وشرَفٍ ، وطُهْرٍ ، ولَمْ يكنْ أبُوكِ رجلاً قبيحَ الفِعالِ ، وَ لَا أُمُّكِ فاسدةَ السِّيرةِ . فكيفَ بكِ اليومَ تُلصِقينَ بِهِما عارًا لا يُمْحَى . فأَبَتْ مريمُ أنْ تجيبَهم ، وَآكتفَتْ بالإشارةِ إلى مَولودِها فزَادَ ذلكَ في غَضَبِهم . وآعتبَرُوا مَوْقِفَها هذا تحدِّيًا لَهُم ، وسُخْرِيَّةً بِهم . وقالُوا في لَهْجَةٍ كلُّها إنكارٌ : كيْفَ نكلِّمُ مَنْ كانَ فِي المَهْدِ صَبيًّا .؟

قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا.

عَبْدُ اللهِ : أَيْ عبدٌ من عِبادِ اللهِ مثلكم ، خَلقَنِي كما خلقَكم .

آتانِيَ الكِتابَ وجعَلني نَبيًّا : أي أنزَلَ عليَّ الإنجيلَ . وجعلَنِي نبيًّا لكم .

وَبرًّا بِوَالِدتِي : أَي مُطيعًا لَها ، مُحْسِنًا مُعاملتَها .

وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبارًا شَقِيًّا : أي لَمْ يجعَلْنِي طاغيةً ، ولا خارِجًا عَنْ طاعَتِه .

وَالمعنَى : وعندَما أشارتْ مريمُ إلى آبنِها في مَهْدِه ، أنطقَه اللهُ سُبحانَه وتعالَى ، قَبْلَ أنْ يَحينَ أوانُ كلامِه . فقالَ مُجيبًا ، مُفنِّدًا مَزاعمَ القومِ : إنِّي بشرٌ مثلكم ، خلقَنِي اللهُ كما خلقَكم ، وميَّزنِي بالإنجيلِ كِتابِي ، وجعلَنِي رسولاً إليكمْ ، ومُبارَكًا عليكمْ أينما كنتُ ، وأوْصانِي بالصلاةِ والزكاةِ ، وبِطاعةِ وَالدتِي مَا دمتُ حيًّا ، ولَمْ يجعَلْنِي منَ الطُّغاةِ ، والعُصاةِ ، والسلامُ عليَّ منَ اللهِ تعالَى ، يومَ وُلِدتُ منْ

غيرِ أبٍ، ويومَ أموتُ مثلكُم، ويومَ أُبعثُ حيًّا كما يُبعثُ مَنْ فِي القبورِ.

ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ :

قَوْلَ ٱلْحَقِّ : أي القولُ الصادقُ الذي لا شكَّ فيهِ ولا ٱختلافَ.

يَمْتَرُونَ : أي يتشكّكُونَ ويَختلِفونَ.

وَالمعنَى : وَتلكَ هيَ يا محمّدُ، قصةُ مولِدِ عيسَى عليهِ السلامُ، سِيقتْ على حقيقتِها. وذلكَ هوَ القولُ الفصْلُ في شأنِها، وفيهِ دَحْضٌ لكلِّ ما حِيكَ حوْلَها منَ الشكوكِ والرِّيَبِ، ومُختلَفِ التآويلِ.

ومُجْمَل المَعْنى

أنَّ قصَّةَ ولادةِ سيدِنا عيسَى عليهِ السلامُ، خارقةٌ منْ خوارقِ العاداتِ، ومُعجِزةٌ منْ مُعجِزاتِ اللهِ سبحانَهُ وتعالَى حيثُ أنَّهُ وُلدَ وَلا أبَ لهُ، ونَطَقَ وهوَ فِي المَهْدِ بِما بَشَّرَ بِرسالَتِه، وأخْرَسَ ألسنةَ المتقوِّلينَ في أمِّهِ.

فِي حَقل التربيَة
صور من الحياة

لِنتأمّل

قد تفقدُ بعضَ أدواتِك المدرسيةِ، وتُلِحُّ في البحثِ عنها. فلا تجدُها. فيذهَبُ بكَ الظنُّ إلى أنَّ أحدًا منْ رفاقِك قدْ سرَقَها لكَ. فتتَّهِمُه وترْميهِ بالسرِقَة. وتأبَى تَصديقَه وإنْ أقسمَ لكَ على بَراءَتِه بكلِّ عزيزٍ لَديهِ. وقدْ يذْهَب بكَ الأمرُ، إلى الشكايةِ بهِ إلى معلِّمِك وتكونُ القطيعةُ بينك وبينَه. وتمرُّ الأيامُ، وإذا بكَ تجِد هذا الذِي فقدْتَه في خِزانَتِك، وقد اندسَّ بينَ كُتُبِك وكَرارِيسك القديمةِ فتندمُ على ما صدَر منكَ نَتيجةَ التَّسرُّعِ، وعدمِ التثبُّتِ.

أوْ قدْ يُساوِرُك الشكُّ في ثِقةِ تاجرٍ باعَك بضاعةً ما، فتظُنُّ بهِ الشرَّ، وترْميهِ بالغَشِّ، والتَّطفيفِ في الكيْلِ أوِ الميزانِ، وتأخذُك النقمَةُ عليهِ، وتُشهِّرُ بهِ عندَ أصحابِك. ثمَّ قدْ يتَّفِقُ لكَ من بعدُ، أنْ تزِنَ أوْ تكِيلَ منْ جديدٍ ما قدِ اشتريْتَ منه للتأكُّدِ ممَّا ذهبْتَ فيهِ من ظَنٍّ. فإذا بكَ تجِدُ أنَّ ما باعَك إياهُ قدْ وزَنَ أوْ كِيلَ بالقِسْطاسِ المستقِيم. فتندَمُ على ما صدَر منكَ لأنكَ تَسرَّعْتَ إلى اتِّهامِه بما ليْس فيهِ.

لِنُعلِّق

هاتانِ قضيَّتانِ مِنْ قضايا أخرَى عَديدةٍ متشابِهةٍ، كثيرًا ما تحدُثُ بيْنَ الرفاقِ والخِلَّانِ، أوْ حتَّى في المعامَلاتِ اليوميَّةِ معَ الغيرِ، ويذْهَبُ ضحيَّتَها أناسٌ أبرِياءُ. لا ذنْبَ لهمْ، سوَى ما ألْصِقَ بِهِم من تُهَمٍ باطِلَةٍ، سبَبُها تسرُّعُ الغيرِ في الحُكمِ عليهِمْ بِمَحْضِ الظِّنَّةِ.

وقد يتَّفِقُ فِيمَا بعدُ أنْ تظهَرَ براءَتُهمْ للعِيانِ مِمَّا نُسِبَ إليهِم ولَكِنْ هيْهاتَ أنْ يُعادَ سَبْكُ الزُّجاجِ بعدَ كسْرِه.



الثمن 225،0 د ت